مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة
(١)

حسن السعيد

بادئ ذي بدء، نجد أنّ من الضروري تحديد المقصود بـ«الديار المقدّسة»، التي نعني بها هنا «الحرمين الشريفين»: [مكّة المكرمة والمدينة المنوّرة]، وذلك رفعاً لالتباس قد يحصل، إذ يزخر الوطن الإسلامي بالأماكن المقدّسة: القدس الشريف، النجف الأشرف، كربلاء، الكاظمين، خراسان، سامراء... الخ[١]

وتأتي خصوصيّة مدينتي مكّة والمدينة، من كونهما معقل الإسلام الحصين لقرون طويلة، وهما مهبط الوحي والتنزيل، ومحط أنظار المسلمين. وقد بقيتا في ظل العصور الإسلامية الزاهرة، عصيّتين علىٰ أعداء الإسلام من الكافرين، إذ لم يكن بمستطاع القوى الغربيّة، أن تعرف تفاصيل كافية، عن طبيعة سكان الجزيرة العربية، وتضاريسها الجغرافية. ومع تزايد قوّة اوروبا، في القرون المتأخرة، وضعف العالم الإسلامي، انطلقت في الغرب موجة من الاهتمام الظاهري الذي أخفىٰ ذلك الاهتمام الحقيقي، الناتج عن اعتبارات سياسية واستراتيجية[٢].

وليس بوسعنا الاحاطة بأبعاد هذا الاهتمام وحقيقته، دون معرفة خلفياته

التأريخية، وظروفه السياسية، وفي سياق معترك الصراع الحضاري المحتدم، منذ قرون، بين الإسلام والغرب.

أبرز محطّات الاحتكاك

وباختصار شديد، إن الغرب ما يزال، منذ ١٤ قرناً، مفتوناً بالإسلام في شكل ما. ذلك أن الإسلام ظلّ دائماً ـ من وجهة نظر غربيّة طبعاً ـ خصماً ومنافساً وعدواً للغرب الأكثر قرباً إليه، علىٰ مستوى العوالم الثقافية الشمولية، وعلىٰ حدّ تعبير المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون» فإن الإسلام قدّم نفسه، منذ نشأته، علىٰ أنه الخصم الأكبر لأوروبا المسيحية، بعد أن انتزع منها السيطرة علىٰ عدد كبير من المناطق في العالم[٣].

في البداية كان ردّ الفعل المسيحي للإسلام هو، ببساطة، نوع من التذمّر المكتوم، ولكن عندما دمّر الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله» المزارات المسيحية المقدّسة في القدس، فإنّ هذا التذمّر تطوّر إلىٰ صخب هادر[٤] لتتفاقم تداعياته لاحقاً علىٰ غير صعيد، في ظل خوف أوروبي من غزو إسلاميّ قادم، ومن ثمّ لتلملم أوروبا شتاتها، وتقوم بالهجوم المضاد، حتىٰ انتصارها المدوّي، يوم أجهزت على العالم الإسلامي، خلال الحرب العالمية الأولىٰ، لتمزقّه أشلاء وكيانات هزيلة.

وبالإمكان إجمال أهم محطّات الاحتكاك المباشر بين الإسلام والغرب فيما يلي:

١ ـ مواقف الإسلام أمام الرومان منذ غزوات «تبوك»، و«اليرموك»... الخ.

٢ ـ فتوحات المسلمين في صقلية والأندلس وجنوب فرنسا، قبل أن تستيقظ أوروبا من غفوتها إلىٰ وعيها الثقافي الجديد.

٣ ـ الاصطدام العنيف بين أوروبا المتحدة وبين الإسلام، تحت شعار

«الحروب الصليبية».

٤ ـ سقوط القسطنطينية في يد الأتراك عام ١٤٥٣م، وبسقوطها فُتح باب أوروبا علىٰ مصراعيه للسيل الإسلامي [٥].

ثمّة حدثان خطيران آخران، في هذا الاتجاه، لعبا دوراً مهماً في تحديد مسار الصراع، هما: سقوط الأندلس عام ١٤٩٥م، وبلوغ العثمانيين مشارف قينا مرتين، عامي ١٥٢٩م، ١٦٨٣م. ففي الوقت الذي استمدّ فيه الغرب من الحدث الأول زخماً هائلاً لمواصلة هجومه على الإسلام، في بقعة أو بقاع أخرىٰ.. كان الحدث الثاني، وما أثاره من خوف دفين، باعثاً قويّاً لابعاد الخطر المحدق.

ومن هنا نشأت المسألة الشرقية، حيث كان الأتراك ـ في البداية ـ يشكلون تهديداً حقيقياً للنظام السياسي والاجتماعي في أوروبا. أما في المرحلة الثانية، من مراحل هذه المسألة، فلم يكن الأتراك يشكلون خطراً علىٰ أوروبا، بل كانت الدول المسيحية، في أوروبا، تشكّل خطراً على الأتراك، ينذر بزوالهم من الوجود.

وينبغي لنا الآن ـ يقول أحد الباحثين ـ ألّا ننسىٰ وألّا نقلّل من شأن هذه الحقيقة، وهي أن العامل الديني كان من أهم عوامل المسألة الشرقية. فإن الأتراك لم يكونوا فقط غرباء عن أوروبا عرقياً ولغوياً واجتماعياً، وبلغة هـ. أ. ماريوت (Marriott) «مادة غريبة كليّاً مغروسة في جسم أوروبا الحي» بل كانوا أولاً وآخراً مسلمين.. ولذا فإن المسألة الشرقية، كما عرّفها ادوارد دريو (Driault) هي «مشكلة القضاء علىٰ قوّة الإسلام السياسية»[٦].

ولكن كيف يتسنّى للغرب ذلك؟

جزيرة العرب: بؤرة الاهتمام

لسنا، هنا، بصدد الإجابة عن هذا التساؤل، غير أنّ ذلك لا يعفينا عن

تسليط بعض الضوء، علىٰ بعض الإجابة، وبما يتماشىٰ مع منهجيّة البحث، وبشكل موجز.

بعد أن افتتح الأتراك مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، وُضعت خطط عديدة لتقسيم الامبراطورية العثمانية. وقد جمع ت. ج. جوآرا (Djuwara) الديبلوماسي الروماني، لا أقل من اثنتين وتسعين خطة من هذه الخطط. ومن بينها خطط وضعها بابوات مشهورون، مثل البابا ليون العاشر، وكليمنت الثامن، وأخرىٰ وضعها ملوك وأباطرة أمثال: مكسيميليان الأول، ونابليون الأول، وديبلوماسيون ورجال سياسة أمثال البروني (Alberoni) وتاليران (Talleyrand)، كما أن رجالاً من أصحاب الخيال الشارد، ومن المثاليين أمثال ليبنتس (Leibnitz) وراهب سان بيير.. اشتركوا أيضاً في وضع مثل هذه الخطط لاقتسام الدولة العثمانية(٧).

وحينما كتب «وليم بلغريف» في مشاهداته الشخصيّة عن «رحلة عام في وسط وشرق الجزيرة العربية» عام ١٨٧٣م: «لقد حان الوقت لأن نملأ هذا الفراغ الموجود في خارطة آسيا، وهذا الذي سنحاوله رغم كل خطر، فامّا أن تصبح الأرض الممتدة أمامنا قبراً لنا، أو أننا سنعبر أوسع امتداداتها عرضاً» فإنه كان يلخّص حلم الرحالة الذين سبقوه، وأغراض أولئك الذين سيأتون بعده.

قد تكون ملاحظة «بلغريف» مقطعاً عرضياً، في تأريخ واهتمام واسعين، يتجاوزان الجزيرة ورمالها إلىٰ حلم الشرق، وهو يدخل المخيلة الغربية، بعد أن عاد لها الصليبيون بحس عالم مختلف. ويرتبط ذلك الحلم بروح عصر النهضة الذي أخذ يدبّ في أوروبا، ويفتح عيونها على البحار البعيدة والقريبة، والشعوب التي تقطنها. واكتسب الشرق صورة خاصة، في تشكيلات الحلم الغربي، وتلوّن بمختلف حالات أوروبا الفكرية وأوضاعها السياسية والعسكرية(٨).

وما أن انتهى القرن التاسع عشر الميلادي، حتىٰ كان معظم العالم الإسلامي

قد استحوذت عليه الدول الأوروبية، أو خلقت فيه مناطق نفوذ سياسية أو اقتصادية. ففي الخليج الفارسي كانت بريطانيا تتسلل تدريجياً، منذ فترة مبكرة، خاصة بعد انتصار الاسطول البريطاني على الاسطول الأسباني، في معركة «الارمادا» عام ١٥٨٨م، وتأسيس شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠م، حيث أخذت الشركة تستولي علىٰ إمارات الساحل العربي في الخليج الفارسي، وتطوّر علاقاتها مع كل من ايران والعراق.

ومن المعلوم أن معظم الشمال الأفريقي قد سقط بيد الاحتلال الفرنسي، ابتداءً من عام ١٨٣٠، واحتلت روسيا القيصرية المناطق الإسلامية في آسيا، ولم يبق بيد الدولة العثمانية إلّا الأناضول والعراق والشام والجزيرة العربية. أما مصر فقد خرجت من السلطة الحقيقية للدولة العثمانية، منذ عام ١٧٩٨م، حين غزاها نابليون بونابرت. ولكنّها بقيت علىٰ شبه ولاء، حتىٰ جاء عام ١٨٨٢م، لتصبح ضمن ممتلكات الاستعمار البريطاني.

وكانت الخطة الأوروبية للاستيلاء على العالم الإسلامي، تتمثّل بالاحتلال العسكري التدريجي، أو التعامل الاقتصادي، أو التسلل من خلال التبشير، أو الرحالة الجغرافيين، أو إيجاد العملاء المحليين، حيثما كان ذلك ممكناً. وبدون ذلك ما كان يسهل لأوروبا أن تدخل في صراع مباشر، مع العالم الإسلامي الواسع الأرجاء، والذي يملك حصانة دينية متينة، تعضدها روح جهادية تخيف أوروبا وتقلقها.

من أجل ذلك، كانت المنطقة العربيّة من أكثر المناطق الإسلامية اهتماماً من لدن الأوروبيين، نظراً للموقع الاستراتيجي والتأريخي، وكانت الجزيرة العربية بؤرة هذا الاهتمام الذي سيعجّل من رجحان كفّة الأوروبيين، وتمزيق العلاقات العربية ـ العثمانية(٩).

وبديهي أن تحتل مكة المكرمة والمدينة المنورة موقع الصدارة في قائمة

أولويات الاهتمام الغربي بالجزيرة العربية. فقد كان لظهور الإسلام ـ الذي تفجّرت ينابيعه من بطاح مكّة ووهادها القاحلة، وللمعجزة الخالدة التي حقّقها (النبيّ) محمدﷺ والمهتدون بهديه، في نشر الإسلام، بمثل تلك السرعة الخاطفة، في الخافقين ـ صدًى ما زال يرنّ في الغرب، ويدوّي في أرجائه. فراح علماؤه ومستشرقوه يبحثون في كل ماله علاقه بهذه الدعوة، التي اهتدى المسلمون بهديها، واستضاءُوا بنورها، فأخذ العالم يدرس أحوال مكّة التي انبثق منها ذلك النور، ويمحّص المؤرخون جميع ما يمتّ إليها بصلة. وقد بلغ من اهتمام الغربيين بمكّة أن دخل اسمها في لغتهم، وأصبح كلمة خاصة تدرج في القواميس، لتدل على الجهة التي يتوجّه إليها الناس، أو يقصدونها بصفة دائمة.

لم يكتفوا بذلك فقط، وإنّما شدّ لها الرحالون الغربيون رحالهم أيضاً، وقصدها السيّاح والمسافرون منهم، فجازفوا بأنفسهم وأرواحهم؛ ليدخلوا فيها ويحجّوا إليها متنكّرين. وقد حالف التوفيق عدداً منهم، وفشل كثيرون غير هؤلاء، فتكونت ممّا كتبوه ودونوه، عن تلك الدراسات والمجازفات، ثروة علمية يصعب على الباحث أن يحيط بها كلّها، ولا سيّما أن ما كتب لم يكن في لغة واحدة، من اللغات الغربيّة الحيّة، وإنّما كتب بلغات عدّة أخصّها؛ الانكليزية، والألمانية، والفرنسيّة.

ولا يخفىٰ أن الدوافع التي تدفع الغربيين إلى الاهتمام بمكّة، وما يتصل بها من شؤون، أو الكتابة عنها، هي دوافع معروفة أهمها: الأغراض التبشيرية، أو البحث العلمي، أو المجازفة والتطويح، أو التجسس والأغراض السياسية في الغالب(١٠).

المغامرون يتقاطرون على الشرق

صحيح أن جزيرة العرب ورد ذكرها في بعض المصادر الغربية، ومنذ وقت

بعيد، إذ ذكرها في كتبه مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد، هيرودوتس، وكذلك تحدّث ثيوفرست تلميذ أرسطو حديثاً شيّقاً عن طيوب بلاد العرب الشهيرة في كتابه «تاريخ النبات»، والجغرافي اليوناني سترابون (حوالى مستهل القرن الأول الميلادي)، والمؤرخ الروماني بليني في القرن الثاني للميلاد، الذي وضع لوائح بأسماء القبائل والمدن والقرى الموجودة في وسط شبه جزيرة العرب.

ولكن كل ما كتبه هؤلاء الكتاب لم يكن كافياً لإماطة اللثام عن حقيقة شبه جزيرة العرب، وإن كان كافياً لإثارة همّة الدول لاكتشاف ما خفي منها[١١].

وفي خضم دوّامة الاحتكاكات بين الإسلام والغرب، غاب الكثير من الحقائق، وانطمس وراء ستار الدخان الكثيف، حتى آلت الأمور إلىٰ أن كل ما كان يعرفه الأوروبيون، عن جزيرة العرب، هو أن الرسول الكريم ولد بها، وفيها المدينتان المقدّستان عند المسلمين؛ مكة المكرمة والمدينة. وكان يسود بينهم اعتقاد خاطئ، بأن جثمان النبي الكريم معلّق في الهواء!![١٢]

وليس هذا الاعتقاد الخاطئ هو اليتيم في تصورات الغربيين عن الإسلام، فهناك ركام من الأوهام قد يصل حدّ الخرافات والأساطير، وهو ما اعترف به الكاتب «بيتر برينت»، حينما يقول: «لقد وصلت إلينا ـ نحن الأوروبيين ـ خرافات وأساطير تصف أعداءَنا، وهم يجوبون جيئة وإياباً أوروبا، ووصلت إلينا معلومات عن المشرق الإسلامي، تتّسم بطابع الإشاعات والخوف والحسد، بدلاً من البحث والاستقصاء والتبصّر بالأمور. فقد أصبحت بلاد العرب، ولا سيّما مكّة مجرد مناطق خرافية يكمن فيها الخطر، وهي أصل وقلب ذلك الدين الذي يهدّد كيان المسيحية بأسرها. فشوارعها وأرضها محظورة على الغرباء الكفّار. والسيف يحمي حماها، والتعصّب الأعمىٰ يسيطر على المدافعين عنها. وهكذا تراجعت حقيقتها عن الأوروبيين الذين لم يمارسوا أي تفكير سويّ تجاهها، بل بالعكس أصبح الرحالة الأوروبيون يخترعون حالة من الظلام، وسحابة كثيفة مفعمة،

ومحفوفة بالأخطار بأن تلك المنطقة هي منطقة غير منظمة، ولا يجوز الاقتراب منها، إلّا في حالة خطر الموت المحدق. فهنالك يكمن فيما وراء حدود سورية، وخلف جبال اليمن، وفي الداخل خلف البحر الأحمر، أساطير خرافيّة وتهديد، وبؤرة ملايين الصلوات، ومولد أعداء المسيحية (هكذا) وموطن ذلك اللغز المحيّر المخيف»(١٣).

ويواصل «برينت» حديثه قائلاً: «وهكذا أصبحت شبه الجزيرة العربية بلاداً أسطورية، فلقد أطلقت الاشاعات والتخمينات عليها هذا الاسم، فضلاً عمّا كتبه بعض الرحالة الموسوسين شديدي التدقيق والاهتمام بالتوافه الذين أتوا للاستكشاف.

وبسب عدم قدرة الأوروبيين على اختراقها، أصبحت المنطقة الإسلامية سرّاً من الأسرار.. وهكذا ظلت بلاد العرب محتفظة بذلك السحر والإثارة بالنسبة للأوروبيين، خلال قرون وقرون. فماذا كان هناك يا ترىٰ؟ ما هو قدس الأقداس الذي يستقطب صلوات الملايين، من غرناطة حتىٰ دلهي، ومن سراييفو حتىٰ تمبكتو يا ترىٰ؟

وهكذا فالتحدي الضمني الموجود، في مثل هذه الأوضاع، أصبح في النهاية أمراً لا يُقاوم، وكما سنرىٰ لم يكن من الممكن مقاومته. وهكذا بدأ المغامرون الدهاة الواسعو الحيلة والتواقون لكشف سرّ وجود مكة والمدينة، هاتين المدينتين المغلفتين بالأسرار والمحروستين بالتعصّب (..!!)، بدأ هؤلاء المغامرون يتقاطرون بشوق للتعرّف علىٰ تينك المدينتين، وعلىٰ شبه جزيرة العرب بأجمعها، مع وجود فوارق كبيرة في دوافعهم، تراوحت بين الشدّة والضعف»(١٤).

مهمّات ومحاولات مشبوهة

ولأسباب كثيرة، دونها حسّاسية الموقف المفرطة، أُحيطت تحركات

الغربيين، حول مكة المكرمة والمدينة المنورة، بالحيطة الشديدة، ولذا اتّسمت ـ في الأعم الأغلب ـ بالسرية التامة.

غير أن هناك تحركاً علنيّاً، هو الأول من نوعه، انفرد بروايته الكولونيل البريطاني «جيرالد ديغوري»، إذ يتحدّث عن إقدام الصليبيين علىٰ مهاجمة الإسلام في عقر داره، بقطع طريق الحج إلىٰ مكّة، ومحاولة الاستيلاء على المدينتين المقدّستين، في حوالى سنة ١١٨٢ ـ ١١٨٣م، علىٰ عهد الشريف قتادة، وفي أيّام الخليفة المقتدر في بغداد.

فهو يقول: إن فارساً من فرسان الصليبيين الفرنسيين يدعىٰ «رينودي شاتيون» Reynaud de Chatillon كان قد استولىٰ علىٰ بلاد شرقي الأردن وقلاع مؤاب والشوبك، شرقي البحر الميّت، فأصبح مسيطراً من هناك علىٰ طريق الحج إلىٰ مكّة المكرمة، فصارت تراود مخيلته خطة جريئة، يهاجم فيها الإسلام في عقر داره، ويحقّق آمال الصليبية. وفي السنة التالية خالف شروط الهدنة المعقودة مع المسلمين، وتوغل في جزيرة العرب حتىٰ وصل إلىٰ تيماء، فقطع طريق الحج، واستولىٰ علىٰ عدد من القوافل الغنيّة، غير أنه تخلّىٰ عن فكرته في مهاجمة المدينة بطريق البر، للاستيلاء علىٰ ما كان يؤمل وجوده من أموال ونفائس، في قبر النبي ﷺ، وقرر أن يفعل ذلك عن طريق البحر..

وبعد قيامه بأفعال شنيعة، من إحراق السفن التجارية، وإغراق سفينة كبيرة كانت تقل عدداً كبيراً من الحجاج إلىٰ جدة.. قرّر صلاح الدين الأيوبي ـ يتابع ديغوري ـ أن يضع حدّاً إلى الأبد لهذا الخطر الذي صار يهدّد مكّة وغيرها، من المدن المقدّسة، فأمر بالاستيلاء علىٰ قصر رينو وقلعته، وبدأ حصاره بقيادته هو نفسه، في خريف عام ١١٨٣م، وفلت رينو من الحصار، علىٰ أنه لم يبق طويلاً علىٰ قيد الحياة، بعد حملته الفاشلة في البحر الأحمر، علىٰ كل حال، لأن صلاح الدين دحر الصليبيين سنة ١١٨٧م، في موقعة حطين بالقرب من الجليل، فسقطت في

يده مملكة القدس الصليبية، وقد أسر أمراء المسيحيين وفرسانهم، وقُتل رينو «عفريت الغرب» وخصم صلاح الدين شر قتلة، في حضور صلاح الدين بالذات، وفي رواية أنه قتله بيده[١٥].

وبإخفاق هذه المحاولة اليائسة، تراجعت ـ إلىٰ حدٍّ كبير ـ الرؤية الموضوعية، لصالح التدليس والتحريف لحقائق التأريخ، والحط من قيمة الإسلام والمسلمين، واعتبار أن المسلمين ليسوا أصحاب حكمة ودراية بالحرب وفنونها، وأنّهم جبناء.. وكفّار، وملاحدة، ووحوش، وقطّاع طرق..[١٦] ليأتي لاحقاً أدب الرحلات الاستشراقي، ليضفي علىٰ هذه الأحكام طابعاً نمطيّاً، حتىٰ بدت المعلومات المقلوبة والشوهاء وكأنّها محايدة وموضوعية وواقعية!

يقول البروفيسور «ادوارد سعيد»: «لم يصبح الإسلام رمزاً للرعب، والدمار، والشيطاني، وأفواج من البرابرة الممقوتين، بصورة اعتباطية. فبالنسبة لأوروبا كان الإسلام رجّة مأساوية دائمة».. ويدعونا «ادوارد سعيد» إلىٰ أن نتأمّل كيف أصبح الشرق، منذ القدم، وبخاصة الشرق الأدنىٰ، معروفاً في الغرب بوصفه نقيض الغرب المتمم له.. فيقول: كان ثمّة الكتاب المقدّس وبزوغ المسيحية وانتشارها. وكان ثمّة رحالون مثل ماركو بولو الذي رسم خطوط التجارة، وخلق نسقاً لنظام مقنّن للتبادل التجاري، ومثل لودفيكو قارتيما وبيترو ديلا فالي من بعده، وكان ثمّة مؤلّفون للحكايات الخرافية مثل ماندقيل، وكان ثمّة حركات الفتوح الشرقية المهيبة بالطبع، وفي مقدّمتها الإسلام، وكان ثمّة الحجاج المقاتلون كالصليبيين بشكل رئيسي. وقد نشأ من مادة الأدب، الذي ينتمي إلىٰ هذه التجارب كلّها، سجلٌّ حفظٍ ذو بنية داخلية متماسكة. ومن هذا كلّه ينبع عدد محدود من الكسولات النمطية: الرحلة، التأريخ، الخرافة، النموذج المنمّط، والمواجهات التماحكية. وتلك هي العدسات التي من خلالها يُجرَّب الشرق ويُعايَن، وهي تصوغ لغة الصدام بين الشرق والغرب، كما تصوغ تصوّره وشكله»[١٧].

ولا ريب، أن الرحالة والمغامرين والمستشرقين الذين قاموا بمهمّات سريّة أو مشبوهة، في عمق المشرق الإسلامي، والحجاز تحديداً، كانوا بمثابة طلائع الاستعمار وأدلّائه(١٨).

قارتيما: أوّل المتظاهرين بالإسلام

ويستفاد ممّا جاء، في عدد غير يسير من المراجع الغربية، أن مكّة المكرمة تطرّق إلىٰ ذكرها المؤرخون الغربيون، منذ القدم، كما أشرنا، وأن عدداً من رحالي الغرب ومستشرقيه قد تسنّىٰ لهم الدخول إليها، والاشتراك في مناسك الحج، في مختلف الأدوار السابقة واللاحقة، بعد أن أعلنوا إسلامهم الحقيقي أو غير الحقيقي. وقد تهيّأ لعدد من هؤلاء أن يكتب عن مجازفاته ومغامراته(١٩).

وسنكتفي بالإشارة إلى المشهورين من هؤلاء، أمّا المغمورون وأولئك الذين بقيت مهمّاتهم طي الكتمان فهم أكثر بكثير من المعلنين والمعروفين لدينا في الأقل(٢٠).

وأول أوروبي زار مكّة والمدينة، في العصور المتأخرة وكتب عن رحلته، فوصلت كتابته إلينا سالمة واضحة رجل ايطالي مغامر يدعىٰ «لودقيكو قارتيما» «Ludovico de Varthema»(٢١) وإن كان من الصعب أن نتأكد؛ إذا كان قارتيما هو حقيقة أول شخص أوروبي يغامر باختراق الصحراء العربية، فقد ادّعىٰ أكثر من واحد، أنّهم دخلوا مكّة قبل قارتيما، مثل جون كابوت «John Cabot» الذي ادّعىٰ أنه قد وصل مكّة في الثمانينيات من عام ١٤٨٠م، بيد أنه وأمثاله لم يكتبوا شيئاً، ولم يتركوا أي شاهد علىٰ رحلاتهم.

ولذلك يبقىٰ لدينا أن «قارتيما» كان أول شخص يخترق صخب الخرافات والفزع، الذي كان يغلّف أواسط وقلب بلاد الإسلام ويخفيه عن عيون الأوروبيين. وأن كان ما نعرف عنه ـ يقول برينت ـ هو هذه المغامرة التي قام بها

بمرح وسعادة ودهاء[٢٢].

وما زال المؤرخون مختلفين في أصل قارتيما حتى الآن: فبعضهم يقول: إنه بولوني، وآخرون يقولون: إنه روماني. وحتى الذين يؤكّدون أنه ايطالي لا يعرفون، تماماً، من أية مدينة ايطالية أتىٰ هذا الرجل. وما يزيد القضية غموضاً أن «قارتيما» نفسه يدّعي أنه من أهالي بولونيا الأيطالية، في مقدمة كتابه «Itinerario»، ثم يعود ويشير نفسه بأنه روماني، فيما تطلق عليه بعض المراجع الغربية لقب «نبيل روما»[٢٣].

وليس المهم عندنا أصله، بل رحلته التي تعاقبت طباعتها وترجمتها، خلال ثلاثين عاماً دون انقطاع[٢٤] وهو يدّعي أنه طبيب، ومع ذلك فهو يذكر، بقليل من الأسىٰ والأسف، أنه قد ترك وراءه زوجة وأطفالاً، يمرّ علىٰ ذكرهم مرّ الكرام.

ثمّ يخبرنا بشيء من التواضع أن ليس لديه شيء من المواهب، ولكنّه لا يخلو من النزر اليسير، ومع ذلك فإن طبيعة ملاحظاته تدل علىٰ قدر كبير من الدهاء. وهو يستعمل مهارته كجندي، ولربما تعلم الفنون، وهو في خدمة بعض الشخصيات في ايطاليا.

ولمّا كانت طرق التجارة، إلى الشرق وإلى شمال أفريقيا، تجتذب المغامرين يومذاك، فإنه عقد العزم علىٰ خوض هذه المغامرة، مهما كان الثمن، وصرّح بأنه ينوي القيام برحلة، تعتبر من أشق وأصعب أنواع الرحلات التي نسجها خياله، وطغت علىٰ أفكاره. فهذا الرجل كان ينوي أن يكون أول مسيحي يتّجه إلىٰ مكّة المسلمة. وعندما غادر ايطاليا لم تكن تلك الفكرة قد استحوذت عليه، بل يبدو أنه بدأ بالتفكير بتلك المغامرة، عندما رأى الفرصة مناسبة لتحقيقها. والأمر الأكيد هو أن «قارتيما» كانت تنتابه بعض الهواجس، وكان يتوق إلى القيام بشيء جديد، كما يتوق الظمآن للماء العذب![٢٥]

وهكذا أبحر «قارتيما» من البندقية في عام ١٥٠٣م، ووصل الاسكندرية،

وبعد أن زار حصن بابليون في مصر، علىٰ ما يقول، توجّه لزيارة طرابلس وانطاكية وبيروت ودمشق. وهناك ارتبط بصداقة مع ضابط من ضباط المماليك، فقرر الذهاب إلىٰ مكّة معه، في ضمن موكب الحج السنوي الذي يخرج من دمشق، بكثير من المراسيم والتقاليد(٢٦).

وعلىٰ ما يبدو أن الخطوات التي أقدم عليها «قارتيا» كانت محسوبة بدقّة، ولم تكن محض صدفة. وما يدلل علىٰ ذلك ما ذكره الكاتب البريطاني «بيتر برينت»، فقد سارع، منذ أول وصوله دمشق، إلىٰ تعلم اللغة العربية، واستعدّ لاستئناف الرحلة جنوباً، ثمّ أمّن لنفسه مكاناً في القافلة الذاهبة إلىٰ مكّة، بعد أن عمل علىٰ عقد عُرى الصداقة مع أحد زعماء المماليك، بما بذل من الهدايا والتودد. وهكذا عينوه حارساً من حرّاس القافلة. ولم ينزعج عندما طلب منه اعتناق الدين الإسلامي. فقد كان ابن النهضة الايطالية البار، في ذلك الزمن الذي تألّق فيه الترف والذكاء، وعندما أصبحت المسيحية تحت رعاية آل مديشي وغيرهم من الأمراء المستنيرين. فلم يكن ليتعثر عند اعتناق دين غريب، وعندما طلب منه اختيار اسم اختار اسم جونه(٢٧).

الطريق الىٰ مكّة

وفي الثامن من نيسان (أبريل) ١٥٠٣م تحرّك قارتيا إلىٰ مكّة بزي جندي من جنود المماليك، ضمن قافلة الحجاج التي تضم حوالى أربعين ألفاً من الحجاج. انطلقت القافلة في الصباح الباكر تكتنفهم أصوات الجمال وصرخات سائقي الأبل والغبار المنطلق؛ ليملأ جو ذلك النهار الربيعي. وكان «قارتيا» يراقب كل شيء، وبرفقته ستون حارساً مثله، وهو ممتط صهوة حصانه، وكانت القافلة تسير بشكل متعرّج ملتو، وبدأت تلك الحركات المعقدة في جانبه وخلفه، والتي أكدت له أخيراً أن مغامرته الحقيقية قد بدأت وأصبحت في حيّز الوجود والتنفيذ(٢٨).

ويظهر من الرحلة التي دوّنها «قارتيا» أنه رجل أفّاق، متحامل على النبيﷺ والإسلام، بعيد عن الثقافة والاتزان. ادّعىٰ أنّه اتصل بكثير من المسلمات في رحلاته، ودوّن ملاحظات فيها الكثير من الخلط والخرافات[٢٩] والمبالغة. فهو يذكر مثلاً: أن القافلة بلغت وادي سدوم وعمورة، بعد مسيرة اثنين وعشرين يوماً!! ومن الواضح أنّ ذلك ليس صحيحاً؛ لأن هاتين المدينتين تقعان علىٰ شاطئ البحر الميّت.. وأغلب الظن، إذا أخذنا بعين الاعتبار أيام السير المذكورة، أن المدينتين الواقعتين في ثلاثة أخماس المسافة ما بين دمشق والمدينة، لا يمكن أن تكونا سوىٰ مدائن صالح والعلا، وقد مرّ بهما «قارتيا» متوهّماً أنهما سدوم وعمورة...[٣٠]

وإضافة إلىٰ أسلوب المبالغة الذي طفح على العديد من الأحداث التي رواها، مع حرص واضح علىٰ تشويه سمعة المسلمين والإساءة إليها، فإنه عمد في مواطن عديدة إلىٰ ذكر أحداث يكاد ينفرد بها دون سواه، ومن ذلك ما يرويه في رحلته، إذ يذهب إلىٰ أنه وصل مع القافلة إلىٰ جبل بالقرب من المدينة (المنورة) يسكنه قوم من اليهود، يبلغ عددهم خمسة آلاف نسمة، وهؤلاء قصار القامة لا يزيد الواحد منهم على الخمسة أو الستة أشبار، أو أقل من ذلك بكثير، ولهؤلاء أصوات رقيقة كأصوات النساء، وبشرة تميل إلى السواد، وهم يعيشون علىٰ لحم الماعز، وإذا وقع المسلم بأيديهم يسلخون جلده وهو حي!

وحينما وصل إلى المدينة التي يسميها «مدينة النبي» بقي فيها ثلاثة أيّام، وهو يدّعي أنه دخل الحرم الشريف، الذي يسميه المعبد، ويصفه وصفاً موجزاً، فيقول: إنه مسجد مقبب يدخل إليه من بابين كبيرين، ويحمل سقفه حوالى أربعة مئة عمود من الآجر الأبيض!!، وفيه عدد كبير من المصابيح المعلّقة ـ الثريّات ـ يناهز الثلاثة آلاف!! ويشير إلىٰ وجود عدد من الكتب الدينية، في جهة من جهات المسجد التي تحتوي علىٰ تعاليم الديانة الإسلامية وحياة النبي وأصحابه، ثمّ يذكر

شيئاً عن القبر المطهر، ويقول: إنه توجد بقربه قبور أبي بكر وعثمان (كذا) وفاطمة[٣١].

وينتهز «قارتيا» الفرصة لإيراد بعض القصص المسيحية، وتسنح له الفرصة لتصحيح الاعتقاد الشائع في اوروبا من أن جثمان النبيﷺ معلّق في الفضاء في البيت الحرام بمكّة، فيقول: «أمّا بخصوص هذه الأخبار فأنا أخالفها تماماً، وأؤكّد أن هذا ليس صحيحاً، وليس به أي مظهر من مظاهر الصدق والحقيقة».

ولكنّه سرعان ما يعود إلىٰ تحامله، حين يبدي تبرّمه من المناظر القذرة، والحلي التافهة الكاذبة التي تُعرض في الأسواق، ومن الغش والرياء والنفاق في دين محمدﷺ!![٣٢]

الحجّ: مناسك.. وانطباعات

يبدأ «قارتيا» بوصف مكّة. إذ يذكر في الفصل الذي يتطرّق فيه إلىٰ تشييدها وانشائها أنها مدينة جميلة تكتظ بالسكان؛ لأنّها تحتوي علىٰ ستة آلاف أسرة. ودورها حسنة للغاية، مثل دور الايطاليين، علىٰ حد تعبيره، وهناك بعض الدور تقدر قيمة الواحدة منها بثلاثة أو أربعة آلاف دوكات. ويذكر كذلك أن مكّة لم تكن مسوّرة؛ لأن أسوارها هي الجبال الطبيعية التي تحيط بها، ولها أربعة مداخل. وحينما وصل الحج الشامي كان الموكب المصري قد وصل إلىٰ مكّة، ولذلك يذكر «قارتيا» بالمناسبة أن هذا الموكب كان فيه حوالى أربعة وستين ألف جمل، وله مئة مملوك للحراسة. ويقول بطريقته التهكّمية، التي تدلّ علىٰ تعصّبه ضد الإسلام: إن الله سبحانه وتعالىٰ أنزل لعنته علىٰ هذه المدينة، فجعلها جرداء قاحلة لا تنتج أي شيء من العشب والأشجار، ولا أي شيء آخر، وإنّما كانت تستورد معظم أطعمتها وحاجياتها من القاهرة عن طريق البحر الأحمر. وقد اندهش «قارتيا» من كثرة الحجاج الهائلة وتعدد جنسياتهم وقومياتهم، بحيث يقول: إنه لم يجد

مطلقاً، من قبل، مثل هذا العدد من الناس يجتمع في بقعة واحدة من الأرض[٣٣].

ويمضي «قارتيا» في نقل انطباعاته ومشاهداته، فيذكر في الفصل المخصص للحج والغفران من رحلته أن مركز مكّة يوجد فيه معبد جميل جدّاً، علىٰ حدّ تعبيره، يشبه الكولوسيوم الموجود في روما، لكنّه مبني من اللبن المشوي، وللمسجد الحرام، أو المعبد كما يسميه مئة باب ذات طوق، ثمّ يشير إلىٰ وجود الكعبة في الوسط، دون أن يذكر اسمها، ويقول: إن المغفرة من الله تطلب عند الطواف حولها، وللكعبة ـ التي يسميها «برجاً» ـ باب فضة لا تزيد في علوّها علىٰ قامة واحدة[٣٤].

ورغم أنه حرص علىٰ وصف الشعائر التي تمارس في مكّة، وغير ذلك ممّا وقعت عليه عيناه، أو تناهى إلىٰ سمعه، غير أنه لم يذكر شيئاً عن الحجر الأسود، مع أنه قد وصف ذلك (البرج) في وسط المسجد الحرام، وهو الكعبة، وأخبرنا عن ذلك الحشد الذي وُجد في ٢٢ مايس (أيار) عام ١٥٠٣م (وهو موعد عيد الأضحىٰ) وقال: إن الاحتفال يبدأ في الصباح قبل الفجر، وكان الناس يطوفون سبع مرّات حول البرج ويقبلون زواياه، وغالباً ما كانوا يتحسسون زواياه ويلمسونها.

إن الحجر الأسود موضوع في إحدىٰ زوايا الكعبة. وهنا يتساءل المرء عمّا إذا كان «قارتيا» قد دخل البيت الحرام حقيقة، أو أن أساس ما قاله كان يرتكز علىٰ ما قيل له، إذ إنه كان يراقب الحجاج من مكان بعيد، ربما بصفته حارساً يقف على الجدران في أعالي ذلك البيت المقدّس[٣٥].

ثمّ يصف بئر زمزم ويقول: إن لها قبّة جميلة، وإن عمقها يبلغ سبعين قامة، وإن ستة أو سبعة رجال يقفون عادة حول البئر؛ ليستقوا الماء للناس منها. وهؤلاء يريقون ثلاثة أسطل من ماء زمزم فوق كل حاج من الحجاج، فيتبلل به من قمّة الرأس إلىٰ أخمص القدم، ولو كان لباسه من حرير[٣٦].

بعد ذلك، يخبرنا عن الأماكن التي تُراق بها دماء الأضاحي من الحيوانات، كما يقول، في «منىٰ» خارج مكّة.. «لقد رأيت هناك حشداً من الفقراء، يزيد علىٰ عشرين ألفاً (..) وهؤلاء يحفرون خنادق في الأرض يشعلون فيها النيران التي يُغذّيها روث الحيوانات، ويشوون اللحوم التي تُعطىٰ لهم ويأكلونها وهم في أمكنتهم. ثمّ يصف باختصار الهدية التي أرسلها امبراطور الحبشة إلىٰ سلطان مكّة، وهي عبارة عن زوج من حيوان أحادي القرن..[٣٧]

وبعد أن أدّىٰ «قارتيما» مناسك الحج كلها في المدينة ومكّة، علىٰ ما يقول، استطاع بتدبير خبيث أن يهرب من القافلة وزملاؤه الحرّاس عليها إلىٰ جدّة، ومن هناك أبحر عن طريق البحر الأحمر إلىٰ إيران[٣٨] ومنها إلىٰ مناطق أخرىٰ؛ ليكمل المهمة الموكولة إليه، علىٰ ما يبدو.

الهروب من الحجاز

ونترك هنا المجال لكاتب غربي هو «برينت»؛ ليسلط بعض الضوء على المهمّة الخاصة التي كان «قارتيما» منغمساً فيها، حيث يقول: «لم يكن «قارتيما» من الأشخاص الذين يعودون من الطريق نفسه التي أتوا منها، فهو يريد السفر والترحال إلى الأمام؛ ليرىٰ بلداناً أخرىٰ وعجائب أخرىٰ. ولقد مرّت به فترات تعرّض فيها للخطر، وهي التي جلبت له تلك الفرصة السانحة للتجوال، فقد كُشِف أمره، وعُرف أنه أوروبي، وتعرّف عليه أحد المغاربة كمسيحي، والمغاربة معروفون باتساع مدىٰ رحلاتهم الى البندقية وجنوه. ولذا فقد تدبّر «قارتيما» أمره، وأقنع ذلك المغربي أنه قد اعتنق الدين الإسلامي عن صدق وإيمان، وتظاهر بكراهيته للمسيحيين بصورة عامة وللبرتغاليين بصورة خاصة، وهم الذين حولوا التجارة إلى البحر الأحمر. ومقابل ذلك أقنع رئيس القافلة المملوكي أن يسمح للمغربي بإخراج خمسة عشر جملاً محملة بالتوابل إلىٰ خارج مكّة، دون دفع

الرسوم المعتادة، عندها قبل ذلك المغربي السماح لقارتيا بالنوم والالتجاء إلىٰ بيته.

بدأ «قارتيا» يصلّي الى الله. وكانت صلاته كلّها عصبية وخوف، ثمّ سمع أثناء اختبائه في داخل بيت المغربي صوت نافخ البوق في القافلة السورية داعياً الحرّاس للتجمّع. علىٰ حين كان قارتيا مختبئاً بأمان في بيت المغربي، وفي أقصىٰ ركن سرّي من ذلك البيت. وهكذا رحلت القافلة السورية إلىٰ دمشق ومعها المغربي والجمال الخمسة عشر المحملة بالتوابل دون دفع الرسوم[٣٩].

وفي معرض وصفه لهزيمته، يذكر «قارتيا» أنه اختبأ في بيت أحد المسلمين في مكّة إلىٰ حين خروج موكب الحج الشامي منها، لكنه يذكر أنه كان من حسن ظنه أن أحبته إحدىٰ قريبات صاحب البيت فساعدته على التخفّي والهرب[٤٠] مع إحدى القوافل الذاهبة إلىٰ جدّة، فإلى السفن الراسية هناك تنتظر الحجاج الهنود لإرجاعهم إلىٰ بلادهم.

وفي جدّة كان عليه أن يتظاهر بالمرض والفقر. وكان هنالك جمهور وحشد كبير من الناس قدّرهم «قارتيا» بخمسة عشر ألفاً. وكانوا في كرب حقيقي وهو يقول: «لقد كانت الحرارة شديدة هنا، وقد بدا الرجال وكأن أجسادهم قد جفّت بسبب الحرارة، وأصيب الكثيرون بالمرض». ومع ذلك فقد وجد أحد ربابنة السفن الذي وافق، بعد أخذ الثمن، على اصطحابه معه في سفينته إلىٰ بلاد العجم».

ولم يكن قدره أن يترك بلاد العرب بالسهولة التي تصوّرها. ففي عدن شكّوا في أمره وظنّوا أنه جاسوس، وذلك بسبب الحساسية التي ولدتها الحملات البرتغالية إلىٰ بلاد العرب، وهكذا حملوه سجيناً إلىٰ أمير اليمن الذي ألقاه في غياهب السجن.. وعندما طُلب منه، خلال الاستجواب، أن ينطق بالشهادتين، خانته شجاعته لأوّل مرّة في حياته المغامرة. فلم يستطع أن يتفوّه بتلك الكلمات، وهو يعلّق علىٰ ذلك بقوله: «لقد كان ذلك بإرادة الله، أو بسبب الخوف الذي اعتراني فلم استطع ان أتفوّه ببنت شفة».

وفي السجن تظاهر قارتيا بالجنون، فسمح له أن يخرج إلى الشارع وهو ممزّق الثياب، وفي وضع مزرٍ من أوضاع المخبولين المجانين، وليواجه ضحكات الأطفال الذين بدأوا يقذفونه بالحجارة. ولكن ما لبثت إحدىٰ زوجات السلطان الغائب، أن لاحظته ولمحته من إحدى النوافذ المشبكة، وليتكرر الإدعاء أن تلك المرأة وقعت في حب ذلك الشاب الإيطالي الوسيم، كما أحبته الشابة في مكّة من قبل، وعندما عاد السلطان تدخلت السلطانة لمصلحة «قارتيا» ورجت السلطان أن يعفو عنه.. وهو يذكر أن تلك السيدة كانت تقول له: «إذا برهنت أنك رجل جيّد فسوف تصبح أميراً»[٤١].. ولا ندري كيف يقنعنا «قارتيا» بأن الأميرة تقع في هوىٰ مجنون، فضلاً عن أنّها تراهن عليه أميراً؟!!، لعلّها في أحسن الأحوال أشفقت علىٰ شبابه وغربته ففسّر ذلك أو حرّفه دسّاً وتشويهاً..!

وأخيراً، وبالتحديد في كانون الأول (ديسمبر) ١٥٠٣م استطاع قارتيا أن يركب سفينة إلىٰ سقطرة، ومنها إلى الهند، حيث كان «فاسكودي غاما» قد نجح بالدوران حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٩م.. ومع السفن البرتغالية عاد «قارتيا» إلى لشبونة، ومنها إلى روما، وفي ايطاليا أثابته جامعة البندقية علىٰ روايته المدهشة المليئة بالأحداث، وحظي برعاية كولونا وسفورزا، وأسبغ عليه الكاردينال كارفاجال حمايته، وهذا الكاردينال هو الذي موّل ترجمة هذه الرحلة الى اللاتينية[٤٢].

وفي عام ١٥١٠م، أخبر قرّاءه في المقدّمة أنه بعد أن زار جزءاً من بلدان وجزر الشرق شمالاً وغرباً اعتراه التفكير الجدّي، بعد الاتكال على الله، أن يذهب لزيارة الأقسام الشمالية من الشرق، ويبدو أنه ليس من المحتمل، أن هذا الرجل الشديد العزيمة والتصميم والحيلة، لم يحاول أن يحوّل نيته هذه إلى العمل الفعلي.. إلّا أنه لم يترك أيّة كلمة تشير إلىٰ هذه الرحلة[٤٣].

وخاتمة حياة «قارتيا» مجهولة كأصله، والأرجح أنه توفي بين ١٥١٢

و١٥١٧م. وميزة قارتيا أنه أوّل من ترك وصفاً، وان كان مقتضباً، للأماكن التي زارها في شبه جزيرة العرب، كما أنه ترك لنا خريطة تظهر فيها شبه جزيرة العرب ممدودة عرضاً في الجهة الجنوبيّة (٤٤).

وبعد هذه الجولة مع «قارتيا» أليس من حقّنا أن نطرح تساؤلاً مشروعاً؛ هل كان الشرق، وبما يحفل به من سحر وروعة وفتنة وغموض، كافياً لكي يتحمّل المغامرون ـ ومنهم قارتيا ـ كلّ ما صادفوه من متاعب، ومما كابدوه من مشاق، وما جابهوه من أخطار..؟!

وليس هناك من شك في أن الإيجاب بـ«نعم» عن هذا التساؤل، يعدّ تبسيطاً مخلّاً لحالة معقّدة، وقراءةً مبتورة أو غير واعية أو ظاهرية لحقيقة غاطسة خفيّة مريبة.

المهمة السريّة: ملاحظات ومؤشرات

وما يدعونا إلىٰ إطلاق هذه الأحكام، بخصوص «قارتيا»، ومَنْ هم علىٰ شاكلته، هو الملاحظات التالية:

١ ـ إن مهمّة «قارتيا» التي شرع بها عام ١١٥٠٣م، جاءت في أعقاب نشوة النصر التي شهدتها أوروبا إثر سقوط الأندلس سنة ١٤٩٢م، وكان هذا حافزاً قويّاً علىٰ ملاحقة الضربات الشديدة للطرف الآخر، «المتوحّش»، «المتخلّف»، «الشهواني»، «الفظ»، «الكافر».. الخ من الصور النمطية المستقرة في اللاشعور الغربي.

٢ ـ إن إيطاليا ـ التي انطلق منها قارتيا ـ تمثّل قلعة البابوية، وهي رأس الرمح في الهجوم الصليبي على المشرق الإسلامي، وحتىٰ هذا اليوم لم تتخلّ عن مهمتها هذه، رغم كل الادعاءات.

وليس اعتباطاً أن يُسبغ علىٰ «قارتيا» لقب «نبيل روما»، وكذلك حماية

الكاردينال لقارتيما وتمويله لترجمة كتابه.

٣ ـ بعد السقوط المدوّي للأندلس (١٤٩٢م)، واكتشاف كل من أمريكا (١٤٩٢م) ورأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ ـ ١٤٩٩م).. برزت البرتغال قوّة استعمارية غاشمة، ولعل تأريخ الاستعمار ما عرف للبرتغال مثيلاً في القسوة، وانعدام الإنسانية، وموت الضمير، كما يقول د. محمود السمرة (٤٥).

لقد تبنّت أوروبا الصليبية يومئذ مخططاً مفاده؛ قضم أطراف العالم الإسلامي تمهيداً لشن الهجوم الكاسح علىٰ قلبه «أي المشرق الإسلامي» وانبرت البرتغال لهذا المخطط، واهتمت به كل الاهتمام، وأولته عنايتها، فأرسلت في عام ١٤٨٧م «بدرو دا كوفيلهام» لدراسة المشرق الإسلامي، وكتابة تقرير عن مدىٰ استعدادات المنطقة وقوّتها. وقد قام «بدرو» برحلتين بريتين ماراً بالقاهرة، وبلدان المشرق العربي الرئيسية، وموانئ البحر الأحمر، والموانئ الممتدة علىٰ طوال شواطئ شبه جزيرة العرب، حتىٰ كلكتا وجُوا في الهند. وفي عام ١٤٩٠م قدّم «بدرو» تقارير مفصّلة عمّا رأىٰ وشاهد (٤٦).

وفي تلك الأثناء، كان البرتغاليون يجوبون المحيط الأطلسي بحثاً عن مستعمرات، وبعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ـ بأمر من ملك البرتغال مانويل الأول ـ أخذت السفن البرتغالية تجوب المحيط الهندي والبحار العربية.

وفي عام ١٥٠٢م اتخذ البرتغاليون قرارهم الخطير بسد البحر الأحمر أمام السفن العربية، وكانت الحملة البحرية بقيادة «فاسكودي غاما».. وتمكّنت من الوصول إلىٰ بحر العرب وسيطرت علىٰ مركب تجاري وبأمر من «دي غاما» وتمّ قتل جميع ركابه البالغ عددهم ٤٠٠ شخص، بمن فيهم النساء والأطفال وثمّ أحرق البرتغاليون المركب، فكان هذا الحادث سبباً في اشعال مواجهة بحرية مع البرتغال، استمرت طيلة القرن السادس عشر (٤٧).

وما يعنينا، في هذا البحث، أن مهمّة «قارتيما» جاءت بعد عام واحد من حملة

فاسكودي غاما علىٰ بوابات عدن، وهذا ما يفسّر لنا خلفيّة إلقاء القبض عليه هناك بتهمة الجاسوسية، كما ويلقي ضوءاً علىٰ أسباب ادعائه الكراهية للمسيحيين بصورة عامّة والبرتغاليين بصورة خاصة، أثناء عقده صفقة مع المغربي في مكّة..

ومن خلال تجميع القرائن الموحية، لا يستبعد أنه كان منخرطاً في مهمّة سرية أوروبية صليبية أو برتغالية، في الأقل، وذلك من خلال المؤشرات التالية:

أوّلاً: تتّسم شخصية «قارتيا» بمواصفات مطلوبة في أيّة مهمّة سرية، وقد ظل علىٰ طبيعته في الخداع والاحتيال إلى النهاية، كما يقول «برنت».

ثانياً: أنه سلك الطريق الممتد بين اوروبا والهند، مركّزاً على اختراق المناطق الإسلامية، خاصة في الحجاز واليمن، وهي التي كانت بمثابة مجاهيل بالنسبة للغرب، ويهمّه كثيراً أمر استجلائها، كخطوة أولىٰ للتعامل معها، علىٰ طريق «اعرف عدوّك».

ثالثاً: كان اهتمام الصليبية منصّباً على التعرف على الأماكن المقدّسة بالذات، ومحاولة رصد تحصيناتها، ومعرفة طبائع السكان وتقاليدهم، والتعرّف على المراسيم الدينية، كالحج، ودورها في حياتهم [٤٨] وهذا ما نجده بشكل واضح لدىٰ «قارتيا» خاصة وأنه دشّن مهمّته بزيارة حصن بابليون في مصر، فضلاً عن تلك الإشارات المبثوثة في ثنايا كتابه حول تحصينات مكّة والمدينة وصنعاء وعدن..الخ. ولا نقلل من أهميّة الغرض الكامن وراء الخريطة التي تركها لشبه جزيرة العرب والتفصيل في مناطق الجهة الجنوبية.

رابعاً: في إشارة «برنت» الىٰ رحلة قارتيا التي استمرت سبع سنوات، بعد قضاء فترة طويلة في خدمة البرتغاليين، وحتى التحاقه بالاسطول البرتغالي في الهند، وعودته معه في رحلة العودة، تثير الكثير من علامات الاستفهام حول علاقة قارتيا بالبرتغال وخططها السرية.

خامساً: إذا كان البرتغاليون قد استطاعوا أن يسيطروا علىٰ شواطئ شبه

جزيرة العرب، فإنهم قد فشلوا في النفوذ إلى الداخل، وارتدت سفنهم مدحورة من أمام عدن وجدّة. وكانت غايتهم من السيطرة على الداخل أن يؤمّنوا الطريق البرّي إلى الهند أيضاً، كما أنّهم كانوا يحلمون بالاستيلاء علىٰ جثمان النبي الكريم ﷺ في المدينة؛ ليطلبوا عندها تسليمهم كنيسة القيامة فديةً له[٤٩].

ونظرة متأنية لرحلة «قارتيما»، وبكل مداخلاتها وخلفياتها وظروفها السياسية والدينية والاقتصادية، فضلاً عن وضع قارتيما الشخصي وعلاقاته مع أرباب السلطة والكنيسة.. كل ذلك يثبت لنا أن مهمّة قارتيما كانت تصبّ، وفي العمق، بالمخطط الصليبي عموماً والبرتغالي علىٰ وجه الخصوص.

وما تظاهره باعتناق الإسلام، ومن ثمّ تظاهره بالجنون في وقت لاحق.. إلّا جزء من مستلزمات المهمّة الخطيرة التي كان يقوم بها.

.. ما بعد «قارتيما»

علىٰ أن خطة احتلال المدينة المنوّرة، وتأمين طريق الهند لم تظل فكرة مجرّدة، أو رغبة جامحة تداعب الخيال الصليبي، بل تحوّلت إلى التنفيذ، وخلال فترة قياسية، ففي عام ١٥١٣م، أي بعد ثلاث سنوات فقط من عودة «قارتيما» إلى لشبونة، حاول الأميرال البرتغالي «الفونسودي البوكرك» حل تلك المشكلة بضربة فاصلة. ورغم فشل هجومه علىٰ عدن، لكنّه أبحر متقدّماً إلى البحر الأحمر، وكان عقله مشحوناً بأفكار جهنميّة. فكان تخطيطه أن يحتل المدينة المنوّرة ومعه جماعة من الغزاة، ويستولي علىٰ تابوت النبي محمد ﷺ ويطالب بفديته، ويعلن أن ثمنه هو كنيسة بيت المقدس، ثمّ يهجم هجوماً ساحقاً علىٰ ضفاف النيل، وهنالك يبني سدّاً ويحوّل مجرى النيل إلىٰ بلاد الحبشة المسيحية! وهكذا وبضربة معلّم سوف يعمل علىٰ جلب الثروة إلى الحبشة وإفقار مصر المسلمة.

ولكن أخيراً ظهرت الحقيقة، ولم يستطع هذا المغامر أن يعمل شيئاً في البحر الأحمر سوىٰ اثارة بعض الضجّة والضوضاء وكتابة بعض الملاحظات، مع أنه هاجم «عدن» مرّة أخرىٰ، في رحلة العودة[٥٠].

وفي الوقت الذي أقدم فيه هذا الأميرال علىٰ ارتكاب حماقته، كان قبطان إحدى السفن البرتغالية مسجوناً في عدن، ويسمىٰ «غريغوريو داكودرا» وقد أسر هو وجماعته، حينما جنحت سفينته إلىٰ شواطئ مقديشو، ومن ثمّ أرسلوه هديّة إلىٰ حاكم عدن، وظل سجيناً هناك حتىٰ عام ١٥١٦م، حين حدثت ثورة محلية أطاحت بذلك الحاكم الذي ألقاه سجيناً لمدة طويلة.

وقد حدث أن رغب الحاكم الجديد في أداء فريضة الحج. فاستطاع «داكوردا» بعد إعلان إسلامه أن يصاحب الحاكم إلى الحج. وفي المدينة المنوّرة أصيب فجأة بنوبة من نوبات الحماس المسيحي (هكذا تقول القصة) فأعلن بصوت عال عن أمله وأحلامه بأن يتحوّل المسجد العظيم أمامه إلىٰ كنيسة مسيحية، كما حدث في كنيسة السيّدة مريم في لشبونة.

وإزاء هذا التصرّف المتهوّر.. أطلق الحجاج سراحه وأعطوه مؤناً ونقوداً، ليلتحق بالقافلة الذاهبة إلىٰ دمشق، التي كانت قد غادرت المدينة قبل بضعة أيام.. ويضل طريقه في الصحراء القاحلة، لتنقذه قافلة عابرة من موت محقّق، ولينطلق صوب البصرة، ثمّ سار علىٰ طول الخليج الفارسي إلىٰ مدينة «هرمز» حيث أحد المراكز البرتغالية، وكان أول رحالة أوروبي يعبر الصحارى الوسطى القفراء الواقعة بين المدينة المنوّرة ووادي دجلة والفرات، ومن هرمز سافر إلى الهند، وبعدها وجد سفينة أخرىٰ أرجعته إلى البرتغال، فوصل إليها عام ١٥٢٠م، ولكنّه سرعان ما التحق بدير من الأديرة هناك[٥١].

ويظل القرن السادس عشر الذي كاد أن يطبع بصبغة برتغالية، شاهداً علىٰ محاولات أخرىٰ، علىٰ هذا الصعيد. ففي تموز (يوليو) ١٥٦٥م حجّ إلىٰ مكّة المكرمة

مملوك برتغالي الأصل مجهول الاسم، فكتب وصفاً دقيقاً عنها، برغم اختصاره، واقتضاب ما جاء فيه، وقد اكتشف ما كتبه هذا المملوك في السنوات الأخير «السنيور ديلافيدا» مكتوباً في حاشية كتاب عربي موجود في مكتبة الفاتيكان برقم ٢١٧. وكان هذا البرتغالي قد تحرّك من رابغ إلىٰ مكّة، في آخر يوم من حزيران، وهو يقول: إن الناس يذهبون عراة إلىٰ مكّة من هناك، مشيراً إلى الإحرام بطبيعة الحال.

وفي حوالى الوقت نفسه، حجّ إلىٰ مكّة كذلك رجل ألماني يسمىٰ «هانس وايلد» كان قد أخذه الأتراك أسيراً في هنغاريا يومذاك، وسيق إلىٰ مكّة، فلم يعد إلى ألمانيا إلّا في سنة ١٦١١م. وبعده بسنوات قليلة أُسر فتىً بندقي يدعىٰ «ماركو دي لومباردو»، وهو يعبر الأبيض المتوسط بصحبة عمّه القبطان، فبُعث به إلىٰ مكّة من مصر مصاحباً لابن سيده. وقد دوّن أشياء طريفة عن سفرته التي نشرها، بعد ذلك بسنين عديدة، المبشر «يوجين روجر»[٥٢].

وفيما يبقى الأخيران استثناءً للحقبة البرتغالية (إذا صحّ التعبير) فإنّ المراحل اللاحقة، وخاصة في القرون الثلاثة المتأخرة، شهدت تبدلات عميقة لصالح الدول الغربية، خلافاً للبرتغال، وبالذات لكل من بريطانيا، هولندا، النمسا، السويد.. عبر الرحالة المنتمين لهذه الدول، وكلٌّ منهم كان مكلّفاً بمهمّة خاصة محدّدة، والشيء الوحيد الذي لم يتبدل هو تلك الصورة الشرقية الشوهاء في المخيّلة الغربية، التي أوغل في تعميقها، أكثر فأكثر، الرحالون الغربيون الذين تقاطروا على المنطقة، في وقت لاحق، بأعداد غفيرة ومثيرة، وهو ما سيكون محور البحث القادم، بإذن الله تعالىٰ.

الهوامش :

(١) في حدود علمنا، تُعد «موسوعة العتبات المقدّسة» التي أعدها وأشرف عليها المرحوم جعفر الخليلي أفضل عمل في هذا الباب.

(٢) يُراجع مقال «من تاريخ رحلات الاستكشاف الغربية إلى الجزيرة العربية وأغراضها؛ رجال على ظهر الرمال العربيّة لعبد الرحيم حسن، مجلة العالم (لندن) ـ ٢٧٦: ٥٠ (٢٧ آيار (مايو) ١٩٨٩م ـ ٢٢ شوال ١٤٠٩هـ).

(٣) للمزيد من الاطلاع على هذه النقطة، يُراجع كتاب «الإسلام والغرب؛ الوجه الآخر» لكاتب السطور، من اصدار مؤسسة التوحيد للنشر، طهران، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م: ١٤ وما بعدها.

(٤) بربارا براون: «نظرة عن قرب في المسيحية» ترجمة مناف حسين الياسري، نشر توحيد، طهران، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.: ٨٥.

(٥) د. محمد إبراهيم الفيومي: «الاستشراق رسالة استعمار»، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣م، : ٣٠ (بشيء يسير جداً من التصرّف).

(٦) زين نورالدين زين: «الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان»، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧١م، : ٢٣.

(٧) المرجع السابق.

(٨) لعل أوسع تاريخ للحلم الغربي عن الشرق ذاك الذي كتبه «ادوارد سعيد» في كتابه «الاستشراق»، إلّا أنه قصر الجهود المتقدّمة على النصف الثاني من القرن الماضي على الطابع العلمي الأكاديمي وحده. مجلة العالم؛ المرجع السابق.

(٩) د. شلتاغ عبود شرّاد: «غياب الوعي في موقف الشعراء العرب من ثورة الحجاز ١٩١٦: البطولة الفردية وحلم الوحدة»، مجلة العالم (لندن) ـ ٣٤٣: ٥٠ (٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠م ـ ١٧ صفر ١٤١١هـ).

(١٠) جعفر الخليلي: «موسوعة العتبات المقدّسة» [قسم مكّة] ـ ٢: ١٨٠ (مؤسسة الأعلمي، ط ٢، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

(١١) د. محمود السمرة: «مراجعات حول: العروبة والإسلام واوروبا»، سلسلة كتاب العربي (٤) ـ الكويت، ١٩٨٤م، : ١١٨.

(١٢) المرجع السابق: ١١٧.

(١٣) بيتر برينت: «بلاد العرب القاصية: رحلات المستشرقين إلىٰ بلاد العرب»: ٣٢. ترجمة خالد أسعد عيسىٰ وأحمد غسّان سبانو، منشورات دار قتيبة، بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

(١٤) المرجع نفسه: ٣٤ ـ ٣٥.

(١٥) De Gaury, Gerald: Rulerz of Mecca, London, 1951. P:79 _ 83 (نقلاً عن موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٢٠).

(١٦) د. رفعت سيد أحمد: «آيات شيطانية: جدليّة الصراع بين الإسلام والغرب»: ٥٤. الدار الشرقية، ط ٢، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(١٧) ادوارد سعيد: «الاستشراق؛ المعرفة، السلطة، الانشاء»: ٨٨. ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط ٢، بيروت، ١٩٨٤م.

(١٨) يُراجع المقال الذي يحمل عنوان «خبراء الاستشراق: طلائع الاستعمار وأدلّاؤه»: ٨٢ ـ ١٠٧. لكاتب السطور في مجلة
التوحيد، العدد (٨٧) السنة الخامسة عشرة، ذو القعدة ١٤١٧هـ ـ آذار ١٩٩٧م.

(١٩) موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٥٠.

(٢٠) ما تجدر الإشارة إليه، أنه قد طبع في فرنسا، في الفترة الممتدة من [١٦٦٥ ـ ١٧٤٥م] ما يزيد عن مئة وخمسين رحلة، منها على الأقل مئة رحلة جديدة، قسم كبير منها إلى المشرق، تُراجع قائمة بأهم كتب الرحلات إلى المشرق من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر، أدرجها د. جبور الدويهي في ذيل مقاله «الرحلة وكتب الرحلات الأوروبية إلى المشرق حتىٰ نهاية القرن الثامن عشر» المنشور في مجلة الفكر العربي ـ ٣٢: ٥٨ (نيسان/أبريل ـ حزيران/يونيو ١٩٨٣م).

(٢١) موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٥١.

(٢٢) بلاد العرب القاصية؛ م.س: ٥٧.

(٢٣) للمزيد يُراجع؛ موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٥١ وما بعدها، وبلاد العرب القاصية: ٥٦ وما بعدها، مراجعات حول العروبة والإسلام واوروبا: ١١٨ وما بعدها.

(٢٤) مراجعات حول؛ العروبة والإسلام واوروبا؛ م.س:

(٢٥) بلاد العرب القاصية: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢٦) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م.س ١ ـ ٢: ٢٥٢.

(٢٧) بلاد العرب القاصية: ٥٨.

(٢٨) المرجع نفسه.

(٢٩) موسوعة العتبات المقدّسة [قسم المدينة] ـ ٣: ٢٣٩.

(٣٠) مراجعات حول؛ العروبة والإسلام وأوروبا: ١١٨.

(٣١) موسوعة العتبات المقدّسة ـ ٣: ٢٣٩.

(٣٢) بلاد العرب القاصية: ٦٠.
(٣٣) موسوعة العتبات المقدّسة ـ ٢: ٢٥٣.
(٣٤) المرجع نفسه.
(٣٥) بلاد العرب القاصية: ٦٢.
(٣٦) موسوعة العتبات المقدّسة ـ ٢: ٢٥٣.
(٣٧) بلاد العرب القاصية: ٦٢.
(٣٨) موسوعة العتبات المقدّسة ـ ٢: ٢٥٣.
(٣٩) بلاد العرب القاصية: ٦٣.
(٤٠) موسوعة العتبات المقدّسة ـ ٢: ٢٥٢.
(٤١) بشيء من الاختصار عن كتاب بلاد العرب القاصية: ٦٣ ـ ٦٥.
(٤٢) مراجعات حول؛ العروبة والإسلام واوروبا: ١١٩.
(٤٣) بلاد العرب القاصية: ٦٧.
(٤٤) مراجعات حول؛ العروبة والإسلام وأوروبا: ١١٩.
(٤٥) يُراجع التعريف بكتاب «الصراع بين العرب والبرتغال» المنشور في مجلة العربي (الكويتية) ٥٩: ١٣٢ (جمادى الأولىٰ ١٣٨٣هـ ـ تشرين أول/اكتوبر ١٩٦٣م، ومن الملفت أن هذه العبارة قد حُذفت حينما أعيد نشر المقال ضمن كتاب مراجعات حول العروبة والإسلام وأوروبا، ص: ١٠٣!!
(٤٦) المرجع السابق: ١٣٤.
(٤٧) د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون: «موسوعة السياسة» ٤: ٤٤٨ (مادة فاسكودي غاما) وعن الدور الخطير لكل من فاسكودي غاما والسياسة البرتغالية الاستعمارية، يُراجع كتاب «الصراع بين العرب والبرتغال» ـ The Portuguese of the South Arabian Cost ـ للبروفسور «سارجنت» R.B.Serjeant، وهو من منشورات جامعة اكسفورد، ١٩٦٣م.
(٤٨) مجلة العالم (لندن) ـ ٢٧٦: ٥١.
(٤٩) مراجعات حول؛ العروبة والإسلام واوروبا: ١١٩.
(٥٠) بلاد العرب القاصية: ٦٨.
(٥١) المرجع نفسه: ٦٩.
(٥٢) موسوعة العتبات المقدّسة ـ ٢: ٢٥٤.

الحجّ في الأدب العربي

مختارات شعريّة

أنشد الإمام علي بن الحسين عليه السلام وقد كان متعلّقاً بأستار الكعبة:

يـــا مـن يجـيب دعـاء المـضطر في الظـلم
يـــا كـــاشف الضرّ والبـلوىٰ مـع السـقم
قـــد نـــام وفـــدك حـول البـيت قـاطبة
وأنت وحـــــدك يـــــا قـــــيّوم لم تـــنم
أدعـــوك ربّ دعـــاءً قـــد أمـــرت بـــه
فـــارحـــم بكـــائي بحـق البـيت والحـرم
ان كـــان عـــفوك لا يـــرجـــوه ذو سرف
فمـــــن يجـــود عـــلى العـــاصين بـــالنّعم

ومع ميمية ابن القيم وهو يصور رؤية البيت:

ولمَّـــــا رَأَتْ أبـــصارُهُم بـــيتَهُ الذي قُـــلوبُ الورىٰ شـــوقاً إليـــه تَـضرَّمُ

كأنَّهُـــمُ لم يَـــنْصَبُوا قَـطُّ قَـبْلَهُ لَأَنَّ شَـــقَاهُمْ قـد تَـرَحَّلَ عَـنْهُمُ
فـلِلهِ كَـمْ مِـنْ عَـبْرَةٍ مُـهْرَاقـةٍ وأُخـــرىٰ عَـلَىٰ أثـارِها لا تَـقَدَّمُ
وقـــد شَرِقت عـينُ المحبِ بِـدَمْعِهَا فـينظُرُ مِـنْ بَـيْنِ الدُّمُـوعِ ويُسجمُ
إذَا عَـــايَنَتْهُ العـــينُ زَالَ ظَـلَامُهَا وَزالَ عَـــن القـلبِ الكـئيبِ التألمُ
ولا يَـعْرِفُ الطَّـرْفُ المُـعَاينُ حُسْـنَهُ إلَىٰ أن يعودَ الطرفُ والشوقُ أعظمُ
ولا عَـجَبٌ مِـنْ ذَا فَـحِينَ أضـافَه إلِىٰ نـــفسِه الرحمـنُ فـهو المُـعَظَّمُ
كسـاهُ مـن الإجـلالِ أعـظَمَ حُـلَّةٍ عـــليها طِـــرَازٌ بـالملاَحَةِ مُـعْلَمُ
فَمِـنْ أَجْـلِ ذَا كُـلُّ القـلوبِ تُحِبُّهُ وتَخـــضَعُ إجـــلالاً لَـهُ وتُـعَظِّمُ

ولابن القيم أيضاً تصوير آخر لموقف الحجّ:

وراحـوا إلى التـعريف يـرجـون رحمـة
ومـــغفرة ممـــن يجـــود ويكـــرم
فـــلله ذاك المـــوقف الأعـــظم الذي
كـموقف يـوم العـرض بـل ذاك أعـظم
ويـــدنو بـــه الجـبار جـلّ جـلاله
يـــباهي بهـم أمـلاكـه فـهو أكـرم
يـــقول عـــبادي قـد أتـوني محـبة
وإني بهـــم بـــر أجـــود وأرحـــم
فأشهـــدكم أني غـــفرت ذنـــوبهم
وأعـــطيْتهم مـــا أمـــلوه وأنـــعم
فـبشراكـم يـا أهـل ذا المـوقف الذي
بـــه يـــغفر الله الذنـوب ويـرحـم

فكـــم مـــن عـــتيق فـــيه كـــمل عـــتقه
وآخـــــر يســـــتسعي وربك أرحـــــم
ومـــا رؤي الشـــيطان أغـــيظ في الورىٰ
وأحـــــقر مـــــنه عـــــندها وهـــو ألأم
وذاك الأمـــــــــر قـــــد رأه فـــــغاظه
فأقـــــبل يحـــثو الترب غـــيظاً ويـــلطم
ومـــا عـــاينت عـــيناه مـــن رحمـــة أتت
ومـــغفرة مـــن عـــند ذي العـــرش تـــقسم
بـــــنىٰ مـــا بـــنىٰ حـــتىٰ إذا ظـــن أنـــه
تمكـــــن مـــــن بـــــنيانه فـــهو محكـــم
أتى الله بـــــــنياناً له مـــــن أســـــاسه
فـــــخر عـــــليه ســـــاقطاً يـــــتهدم
وكـــم قـــدر مـــا يـــعلو البـــناء وينتهي
إذا كـــــان يـــــبنيه وذو العـــرش يهـــدم

من شعر أبو زكريا الصرصري:

وأحـــــرموا ثمّ لبَّـــوْا خـــاشعين لذي الـ
ـــــــجلال كـــــلٌّ إلىٰ مـــــولاه مـــبتهلُ
وســـاوت الســـوقةُ الأمـــلاكَ تحســـبهم
إلى الحســاب مـن الأجـداث قـد نَسَـلُوا
وشـــــارفوا عـــــرفات فـــاستبان لهـــم
أن الحـــجيج إلىٰ مـــا حـــاولوا وصـــلوا

فـــــيا له مـــــوقفاً فـــــيه لوافـــــده
جـــوائـــز الفـــضل والرضـــوان تُـــبتذلُ
وفـــاض بـــالمشعر الإحســـان فـــوقهم
وبـــالمُنىٰ في مـــنىٰ مـــن ربهـــم حـصلوا
ثم اســتقلوا إلى البــطحاء حــين قـضوا
رَمْـــيَ الجـــمار وقـــد نـــالوا الذي أمـلوا
طـــافوا بـــذات الســـتور ازداد مـــعلمها
جـــــــلالة وبهـــــاءً ليس يـــــنفصل
وأحســـنوا الســـعي بـــين المـــروتين وفي
المـــــقام بـــــعد الطـــــواف وانـــتقلوا
شـــفوا بـــزمزم داء الصـــدر واعـــتمروا
ومـــــا بـــدا لهـــم مـــن صـــالح عـــملوا
وودعـــــوا البـــيت والأحشـــاء واجـــفة
وفي القـــــلوب لآلام النـــــوىٰ شُـــغُلُ

للشيخ محمد علي كمونة، في وقت كان السفر علىٰ ظهور الإبل:

نـرىٰ ظـعناً يـبغي (مـنىً) فـا (لمحـصّبا)
فـــــادنى إليـــــه اليـــعملات وقـــرّبا
وقـــوّض مـــن بـــعد الإقـــامة راحـــلاً
يـــلفّ الربىٰ بـــالبيد والبـــيد بـــالربىٰ
وجشـــــمها شرق البـــــلاد وغـــربها
إذ جـــــاز مـــنها ســـبسباً أمّ ســـبسبا

ليـقضي عـليها مـن (مـنىً) غـاية المـنىٰ
فــقد شــاقه مــن (شـعبه) مـا تشـعبا
وقــد جــنحت (للـخيف) حـتىٰ كأنمـا
قــوائمـها نــيطت بأجــنحة الصّــبا
وأرســـلها وخــداً إلىٰ ذلك الحـــمىٰ
ومــنه الجـــناب الرحب حــيّا ورحـبا
وعـــرّس كـــيما يســـتريح ركــابه
بأعـــطافها ممـــا عــراهــا وأتــعبا
ولمــا حــدا الحــادي وهــاج اهـاجها
رواقـــص للادلاج هـــجنَ تــطرّبا
ووجّـــه تـــلقاء (المــعرّف) وجــهه
ليــقضي بــه فـرض (الوقـوف) تـقرّبا
ولما قـضى (التـعريف) والشـمس آذنت
ـ وقـــد أزف الترحـــال ـ أن تــتحجّبا
وحيث (أفـاض) النـاس أرخـىٰ ركـابه
وألوىٰ بـــه (للـــمشعرَين) ونكّــبا
وقد رقصت عـند (المحـسّر) مـن (مـنى)
بــه وعــلىٰ أكــوارهــا مـاس مـطربا
وضــجّ فــضجّ النــاس كــلّ مــؤدّياً
مــن (الذكــر) مـا نـصّ الإله وأوجـبا
ومــال الى جمــع (الجــمار) و(رمــيها)
ولمــا رمــاها ســاق (هــدياً) وقــرّبا

وطـــاف (بـــبيت الله) ســبعاً إنــابةً
إليـــه وصـــلّى في (المـقام) وعــقّبا
وقد أوسع (الأركـان) عـند (استلامها)
دمـــوعاً فـــخيل السيل قـد بـلغ الزبىٰ
وأكـــثر عـــند (المســتجار) تــنصّلاً
إلىٰ ربّـــه ممـــا أسَـــاءَ وأذنـــبا
وســاغ إليــه الورد مــن مـاء (زمـزم)
وأعـــذِبْ بمـــاء ورده ســاغ مــشربا
و(للســعي) بــين (المــروتين) مـهرولاً
ســعى وبجـلباب الخـضوع تجـلببا
وســارع (للــتقصير) غــير مــقصّرٍ
وشرّق (للــتشريق) يــنحو (المحــصّبا)
ولمــا قــضىٰ نسكاً (مــناسك) حــجّه
نحـــا (يــثربا) لا أبــعد الله يــثربا[1]

من شعر وليد الأعجمي:

طــاف «بـالبيت» فـاستهلّت جُـفونُهْ عَـــبراتٍ فــاضتْ بهــنَّ شــؤونُهْ
واحـــتواه مـــن الجـــلالةِ شــوقٌ وبأعـــماقه اســـتفاق دَفِـــينُه
شـــاعر عـــاشق له سُـــبُحاتٌ بهـــوى المكَّـــتين بـــادٍ حـــنينُهْ
هـــائم قـــلبُهُ، وفي كـــل وادٍ عـــند «أُمّ القـــرىٰ» تَهـــيج شـــجونُهْ
يَـــتَمَلَّىٰ مـــن الجـــمال فـــنوناً وجمـــالُ الإيمـــان شـــتَّىٰ فـــنونُهْ
ويـــداري هـــواه بـــالشعر نحـــوي فـــيباريه بـــالنشيد أنـــينُهْ
وانـــثنىٰ ضـــارعاً وللـــدمع سَمْـــطٌ لؤلؤيٌّ مـــنثَّرٌ مَكـــنونُهْ

يشتكي باللوىٰ لواعجَ شوقٍ ... وبِسَلْعٍ وساكنيه سكونُهْ
بثَّ شكواه بالقريضِ حزيناً ... ومن الشعرِ ما يُريحُ حزينُهْ
وتمنىٰ وهو الذي قد تساوتْ ... عنده أُمنياتُهُ ومَنُونُهْ
هيبة «البيت» علَّمته بياناً ... بالهوىٰ زاد والتقىٰ تبيينُهْ
رقَّ باللفظِ شعره، والمعاني ... حين راقت يَزينُها وتَزينُهْ
كلُّ أنشودةٍ له حين تُتلىٰ ... تُنعِشُ القلبَ رقةً وتُلينُهْ
كالغواني الحسانِ مِسنَ دلالاً ... وجنى الروض قد تَدَلَّتْ غصونُهْ
أيها الشاعر المُشوق تمهّل ... «كعبة الله» هذه و«يَمينُهْ»
يَجِفُ القلبُ خاشعاً في حِمَاهَا ... و«بأركانها» يطيب ركونُهْ
و«مقامُ الخليل» فيضٌ ونورٌ ... للبرايا مكانُهُ ومكينُهْ
وصلاةٌ «بالبيتِ» تَعدلُ عُمْراً ... بالضلالاتِ قد تَقَضَّتْ سنونُهْ
عَرَفَ الأنسَ شاعرٌ أرهَقتْهُ ... بالخطايا ذنوبُهُ وديونُهْ
ملأ الحبُّ قَلبه والحنايا ... أَلَقاً من سناه ضاءَتْ دجُونُهْ
واستنارت له سبيل هُداه ... فَتلَاشَتْ أوهامُهُ وظنونُهْ
وتسامى بالروح حيث استقرَّتْ ... جَبْهَتاه على «الحصى» وجَبِينُهْ
مطمئنَّ الضَّمير طَلَقَ المُحيا ... رَضِيَتْ نفسُهُ وقَرَّتْ عيونُهْ
وله في النهار سَبْحٌ طويلٌ ... تَتوخّاه في الحياة شؤونُهْ
ويعاني بناشئَات الليالي ... وَطْأَةً، ربُّه عليها يُعِينُهْ
ويناجي الإلهَ بسرٍّ خفيٍّ ... عن سوى الخالقِ العظيم يصونُهْ
حَسْبُهُ وقفةٌ بِجُنْح الدياجي ... والخلّيون هُجَّعٌ ومجُونُهْ
حَسْبُهُ سجدةٌ ستغدو كتاباً ... تَتَلقَّاه بالحسابِ يَمينُهْ
ورحيقٌ من نبعِ «زمزم» يروي ... كلَّ صادٍ تَسنيمُهُ ومَعِينُهْ
فَجَّرَتْها عناية الله عيناً ... أيْنَ منها أنهارُهُ وعيونُهْ

ثَـــرَّة بـــالعطاءِ وبـــالخيراتِ ثَـــجَّـ ... ـاجُـــها طـــعام طُـــعْم سمـــينُه
وشـــفاءٌ مـــن كـــلِّ سُـــقمٍ وداءٍ ... يـــــتلوّىٰ مـــبطونُهُ وطـــعينُهْ
يـــغمرُ القـــلبَ بـــالمَسَرَّاتِ وادٍ ... آهـــلاتٌ مـــنه الصـــفا وحـــجُونُهْ
وهـــدير الدعـــاء لله حـــولَ الـ ... ـبـــيت طَـــابتْ أنـــغامُهُ ولحُـــونُهْ
واخـــــتلاف الألوانِ في الحـــج ... والألســـن آيـات بهـنَّ يَـقْوىٰ يَـقينه
قـــصدوا مـــوطنَ الرجـــاءِ وفـــودًا ... وســـحابُ الِـــرِّضْوَانِ ســـحَّ هُـــتونُهْ
يـــبتغون الرِّضـــا ويَـــرجُـــونَ ربًّاً ... مـــانحاً فـــضلهُ لمـــنْ يَســـتَعينهْ
وعَـــــجِلنا إليك ربِّ لترضىٰ ... يـــومَ لا يـــنفع القـــرينَ قـــرينُهْ
وبحـــوم المـــضمار لن يـــتساوى ... أعـــــوجيٌّ مُجَـــرّدٌ وهَـــجينُهْ
ومـــضَىٰ ركـــبُهُ إلى «عـــرفات» ... وبـــوادي نُـــعْمان حَـــطَّتْ ظُـــعُونُه
ومِـــنَ الدَّمْـــعِ هَـــلَّ بـــالسَّفْحِ سَـــفْحٌ ... فـــوقَ خـــديهِ يَسْـــتَدِرُّ سَـــخِينُهْ
جـــذوة الوجـــد بـين جَـنْبيهِ شَـبَّتْ ... كشـــبا السَّـــيفِ أرهـــفتْه قُـــيونُهْ
كـــلَّما حـــاولَ اصـــطباراً عـــليه ... يَهـــتِكُ الدَّمـــعُ صَـــبرَهُ ويخُـــونُهْ
وطـــيوب «الخـــيام» فـــاحَتْ فـقلنا ... عَـــطَّر الرَّوضَ عـــابقاً نـــسرينُهْ
وريـــاحُ البـــشرىٰ وبـــين يَـــديها ... تـــتهادى بِـــيضُ السَّـــحابِ وجُـــونُهْ
والغـــاماتُ ظُـــلَّةٌ تـــتنزّىٰ ... بـــالرَّبابِ الرَّطـــيب إذ حـــان حِـــينُهْ
بـــردهُ يـــطفىءُ الأوامَ كـــريماً ... ويُـــنقي الفـــؤادَ مَـــما يَـــرينُهْ
وتـــرى أوْجُـــه العـــبادِ وِضـــاءً ... زانهَـــا نَـــضرْةُ النَّـــعيمِ ولِـــينُه
نَـــاضِرَاتٍ لِـــرَبِّها نَـــاظِرَاتٍ ... أزْلِـــفَتْ حُـــورُهُ إليهـــم وَعِـــينُهْ
وضـــجيجُ الحـــجيج يَـــعلو وَيحـــلو ... بـــالمناجاةِ وَقْـــعُهُ ورَنـــينُهْ
رَبَّـــنا هَبْ لنـــا مـــن الأمـــر رُشـــداً ... وســـبيلاً إلى العُـــلا نَســـتَبينُهْ
نَجِـــدُ الأمْـــنَ والســـعادة فـــيه ... فَـــلَقدْ عَـــزَّ مـــن ســـبيل أمـــينه
ولقـــــد ذَلَّت الرِجَـــال ودانَتْ ... لِـــلذي كـــان قـــبلَ ذاكَ تُـــدِينُهْ

نَـقَضَتْ عـهدها وخـانَتْ فَهانتْ واعـــتراهـا ذُلُّ الفسـادِ وهـونُهْ
ورأيـــنا بأعـــين العَـــجز مَـنَّا هَـجْعَةَ الَّـليثِ حـين دِيسَ عَـرينُهْ
عـزمةٌ مـنك تـبعث العـزم فـينا صـــارماً حَـــدُّه وَرَيّاً كـــمينُهْ
أمـــلاً يمـــلأ النـفوس فـيمضي يَحْـــطِمُ القـــيدَ بـالإباءِ رَهـينُهْ
كـالربيعِ الضَّـحوكِ يَـطْفَحُ بِـشراً بأزاهـــــيره زَهَـــا تـــلوينُهْ
وعـــلى سَـــجْعِ طـيرِهِ وغِـناهُ رَفَّ زَيـــتُونُهُ وَرفْـــرَفَ تِـــينُهْ
أجـدَر النّـاس بـالكرامـةِ عـبدٌ تَـــلِفَت نَـــفْسُه لِـــيَسْلَمَ دِيـنُهْ

الهوامش :

(١) ديوان ابن كمونة، النجف سنة ١٩٤٨: ٢٥ ـ ٢٧.

رسالة رئيس منظمة الحجّ والزيارة إلىٰ وزير حجّ المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين إلى قيام يوم الدين.

سعادة الاخ الدكتور محمود بن محمد سفر ـ وزير الحج للمملكة العربية السعودية المحترم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حمداً لله سبحانه، وله الشكر أن منَّ عليَّ وعليكم بتوفيق خدمة حجّاج بيت الله الحرام، واستطعنا بفضله ومنّته أن نطوي موسم حجّ آخر، أدّى فيه عباد الله مناسكهم، وعادوا إلى أوطانهم سالمين غانمين. نعم، لقد كان لحادث حريق منى ـ حيث توفي جمع من الحجاج، وأُصيب جمع آخر منهم ـ وقع مؤلم على القلوب، وسيكون من الحوادث المؤلمة التي تذكر في تأريخ الحج، غير أن عزاءنا جميعا أن هؤلاء لقوا مالقوا في طريق زيارة بيت الله الحرام وأداء نسك الحج، وأملنا كبير في أن يتغمد الله سبحانه المتوفين برحمته الواسعة،

ويغدق على المصابين أجر الصابرين المحتسبين. ويلزمني أن أتقدم بالشكر لكل العاملين في البلدين الشقيقين الجمهورية الاسلامية الايرانية والمملكة العربية السعودية على ما بذلوه من جهود في أرض منى؛ لتجاوز العقبات والنقائص، التي سببها الحريق، ولتوفير الراحة لضيوف الرحمن. شكر الله مساعيهم، فخدمة حجاج بيت الله الحرام من أفضل الأعمال وأجلّها كما ورد في النصوص الإسلامية:

سأل رجل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: إنا إذا قدمنا مكة، ذهب أصحابنا يطوفون، ويتركونني أحفظ متاعهم. قال الامام: أنت أعظمهم أجراً.

وعن رجلين تزاملا في سفر الحج فلما دخلا المدينة اعتلّ أحدهما، فكان الآخر يمضي إلى المسجد، ويدع صاحبه وحده، فبلغ ذلك الإمام الصادق عليه السلام، فأرسل إليه، وقال له: قعودك عنده أفضل من صلاتك في المسجد.

من هاتين الروايتين يتبين عِظم أجر خدمة ضيوف الرحمن. نسأل الله سبحانه أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، ويتقبل منّا ومنكم، ويوفقنا لمزيد من هذه الخدمة الجليلة.

من جانب آخر، مثل هذه الخدمة الكبرى لا يمكن أن تخلو من عيب ونقص؛ بسبب حجمها الهائل وضخامة مسؤولياتها، من هنا فلابدّ من تظافر الجهود؛ للتغلب على النواقص، وإحدى السبل في ذلك فتح باب النقد الذاتي، وهي سنّة إسلامية أكّدها رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله لجموع المسلمين: «رحم الله امرئاً أهدى إليّ عيوبي»، وورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام قولهم: «أحبّ إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي».

ومن الوفاء أن أذكر أولاً أن السنوات الماضية شهدت تطويراً في أداء الخدمات لحجاج بيت الله الحرام مثل: توسعة الحرمين، ومدّ الطرق والجسور، وتوفير احتياجات الحجاج و... لكن هناك الكثير من

المشاكل، التي يمكن تجاوزها، أو تقليصها إلى أقل حدٍّ ممكن عن طريق الاستثمار الأفضل والأصح للإمكانيات الموجودة، ومعرفة طبيعة هذه المشاكل، والتفكير الجادّ في الحلول العملية، مما يوفر رضا ضيوف الرحمن، وبالتالي رضا ربّ العزّة والجلال. لقد تلمست من معاليكم خلال سنوات توليكم وزارة الحج رغبةً صادقةً في تطوير أداء الخدمات، واهتماماً جاداً بتحسين أوضاع الحج، باطّراد. لذلك دأبتُ بعد انتهاء كل موسم أن أكتب لكم وجهات نظرنا بشأن ماحدث في ذلك الموسم، ووجدنا ـ والحمد لله ـ اهتماماً بما كتبناه لكم، ورأينا تنفيذاً لبعض ما قدمناه من اقتراحات، وهذا يشجعنا على مواصلة هذه السنّة الحسنة.

والآن وبعد موسم حج سنة ١٤١٧هـ أتقدم بالشكر لمعاليكم، ولكل العاملين معكم في وزارة الحج، وللّذين ساهموا في خدمة الحجاج، آملاً أن يكون تقريرنا هذا مساهمة في هذه الخدمة الكبرى بإذنه تعالى، وأن يكون عاملاً على مزيد من التعاون لما نصبوا إليه جميعاً في الحج.

* * *

آ ـ مطار جدة

١ ـ لقد تعامل المسؤولون في مطار جدة هذا العام ـ مع الأسف ـ تجاه ما يحمله الحجاج من المصاحف وكتب الأدعية، والمناسك والمكتوبات الشخصية بشكل يتنافى مع ما اتفقنا عليه، ومع أصول الخلق الإسلامي، فقد أخذوا تلك الكتب ورموها جانباً، وأبوا أن يعيدوها إلى أصحابها رغم المطالبة والتوضيح، مما أدى إلى استياء الحجاج الإيرانيين. أَليس الحجّ مكاناً للعبادة والدعاء والتضرع إلى الله سبحانه؟ أَلستم تصرّون على أن الأماكن المقدسة خاصة بالعبادة؟ فلماذا إذن تحجز المصاحف وكتب الدعاء، وقد ورد في النصوص أن «الدعاء سلاح المؤمن» وأن «الدعاء مخّ العبادة». ربما يقول قائل: إن

المصاحف متوفرة في المساجد. هذا صحيح، ولكن الحجاج يحتاجون إلى تلاوة القرآن في منازلهم أيضاً، وعادة الناس عندنا أن يختموا القرآن مرةً أو مرات خلال أيام حجّهم، أو أن يكثروا من تلاوته في تلك الأيام المباركة. فلماذا يُحرمون من ذلك؟ ولماذا يعود الحجاج من سفرهم التأريخي المقدس هذا، وهم يحملون مشاعر جريحة من جراء هذا التعامل؟ جدير بالذكر أن أكثرالكتب المحتجزة قد سبق أن قدمت نماذج منها إلى المسؤولين السعوديين مما لا يدع أيّ مبرر لاحتجازها.

٢ ـ الحجاج القادمون إلى موسم الحج ينتمون إلى مذاهب مختلفة منهم الحنبلي والشافعي والحنفي والمالكي والجعفري و.. ومن الضروري أن يشعر هؤلاء جميعاً بأن روح الاخوّة الإسلامية هي التي تسود بينهم جميعاً، وأنّ الفوارق الفقهية بينهم ضئيلة لاتكاد تميّز بينهم في موسم الحج. لكن الحجاج في المطار يواجهون كتباً تصرّ على طرح مسائل في الفروع والأصول وفق مذهب معين، وبذلك تخلق نوعاً من الاستفزاز الطائفي الذي لا مبرّر له إطلاقاً، والأغرب من ذلك أن الحاج الإيراني يرى أنه ممنوع من اصطحاب كتب المناسك معه، مما يُشعر بأن هناك إصراراً على فرض حالة من الطائفية البعيدة عن روح الاخوّة الإسلامية في موسم الحج. نحن على استعداد للتحدث بشأن هذه المسألة قبل موسم الحج القادم؛ لتجاوزها ولإحلال روح الاخوّة الإسلامية بين جميع المسلمين.

٣ ـ علماء الدين يحظون عند جميع المسلمين بمنزلة خاصة وحرمة خاصة. من هنا لابد من التعامل معهم في المطار بما يتناسب ومكانتهم. ولكن الملاحظ أن هؤلاء الأجلاء يخضعون في المطار لحالة مزرية موهنة من التفتيش، لا تتناسب مع توجهات حكومة خادم الحرمين الشريفين؛ لذلك يلزم الإيعاز برعاية حرمة علماء الدين.

٤ ـ من الأمور الهامة في إدارة الأعمال ـ كما تعلمون ـ الانسجام

الكامل بين الأقسام التنفيذية. لكن المشاهد في مطار جدّة هو غياب هذا الانسجام وحضور التعامل الذوقي الفردي مكانه، مما يؤدي الى اختلال الأمور. بعض العاملين في المطار يجهلون التعليمات بشأن الجوازات، وبعضهم شباب قليلو التجربة، وبعضهم شيوخ بطيئو الحركة، وربّما شاهدنا توقف أجهزة الكامبيوتر في الصالة، مما يؤدي بأجمعه إلى تعب الزائرين وإرهاقهم. وتتركز هذه المشكلة بشأن جوازات الخدمة. فأصحاب هذه الجوازات لا يجدون أية تسهيلات ـ كما هو المتعارف بين الدول الصديقة ـ بل يواجهون مزيداً من التأخير في بعض الأحيان.

٥ ـ فترة رحلات الطائرات الإيرانية مضغوطة، والصالة لا تستوعب حجاج عدد من الرحلات، مما يؤدي إلى تأخر في الإجراءات، وقد يؤدي ذلك إلى بقاء الحاج أكثر من ثماني ساعات في صالة الانتظار. من هنا نرى ضرورة عدم الاكتفاء بصالة واحدة للسنوات القادمة.

٦ ـ الأسلوب الجديد في صدور تذاكر الحافلات عن طريق مكتب الوكلاء الموحّد أحدث مشاكل منها:

ـ انخفاض قدرة الأداء رغم زيادة العاملين.

ـ عدم توفر التدريب الكافي للعاملين.

ـ إضافة طابور جديد في مداخل المطار وازدحام الحجاج. يمكن حلّ المشاكل المذكورة عن طريق إصدار تذاكر جماعية للقوافل، وتسليمها إلى ممثلي تلك القوافل.

٧ ـ المواقف الخاصة لا تفي بحجم الحجاج الإيرانيين القادمين. ونشير الى أننا اتفقنا مع معاليكم على زيادة مساحة هذه المواقف.

* * *

ب ـ إسكان الحجاج

مشاكل قسم الإسكان:

١ ـ تعدد مرات التفتيش المختلفة دون تنسيق مسبق، ودخول الأفراد

إلى منازل الحجاج يؤدي إلى اختلال في إدارة أمور الحجاج. ومن الطبيعي أن هيئة الإسكان ملزمة بالتعاون والتنسيق مع الجهات المعنية رسمياً من قبل المملكة العربية السعودية، وتعتذر عن التعاون مع أية جهات أخرى، وعن السماح لهم بدخول المنازل.

٢ ـ ممثلو وزارة الحج ومؤسسة المطوفين يقومون بتفتيش المنازل بعد إسكان الحجاج، وبعد أن سعت لجنة الإسكان إلى رفع نواقص تلك المنازل. مما يجعل عملية التفتيش غير مجدية. ولكي تكون مفيدة، لابدّ من أن تتزامن مع جهود لجنة الإسكان في إعداد السكن، وأن تكون قبل عشرة أيام على الأقل من ورود أول مجموعة من الحجاج.

٣ ـ عملية إرسال العقد الموقع بين لجنة الإسكان وأصحاب المنازل إلى مؤسسة المطوفين، ثم من المؤسسة إلى وزارة الحج لتأييده، وعودته إلينا، وتسليمه للمالكين تستغرق مدة طويلة مما يؤدي إلى اختلال العمل.

٤ ـ التعليمات تقتضي اجتناب استيجار المنازل الفاقدة للتصريح ما أمكن ذلك. ومن جهة أخرى نرى بعض المنازل لدى الإقدام على استيجارها لم تحصل على التصريح بعد، وتصريحها قيد التنفيذ. من هنا نرى من المناسب الإسراع في إعطاء التصريحات للمنازل، التي تتوفر فيها الشروط خلال شهر رجب.

٥ ـ نظراً لعدم توفر مياه الشرب بالمقدار الكافي لدى ازدحام الحجيج، من المناسب اتخاذ مايلزم لتعبئة مياه زمزم بشكل صحي وتوزيعها على المنازل.

٦ ـ موسم الحج يتجه إلى الاقتراب من فصل الشتاء، ولابدّ من الاهتمام بتوفير الماء الساخن في حمامات المنازل، وأن يدرج موضوع السخانات في التعليمات والتنظيمات، كما أن توفّر وسائل التدفئة كالبطانيات ضروري أيضا.

٧ ـ عملية توزيع اللافتات المنصوبة على المنازل؛ لتوجيه الحجاج

بواسطة مؤسسة المطوفين كانت في الموسم الماضي ذات نواقص كثيرة. نقترح أن يتفق الجانبان على شكل معيّن لهذه اللافتات، وبعد الاتفاق النهائي، يأتي مدراء القوافل بهذه اللافتات الموحّدة المتفق عليها من إيران، كي نؤمّن مسألة التوحّد في هذه اللافتات، ونعفي المؤسسة من هذه المسألة؛ لتنصرف الى أعمالها المكثفة في الموسم.

٨ ـ من المناسب إصدار التعليمات إلى البلدية للاهتمام أكثر بنظافة أطراف المنازل، وخاصة أطراف المجتمعات السكنية، حيث تجتمع أحيانا القاذورات لأيام مسببة تلوث البيئة والأمراض.

٩ ـ يُطلب من المالكين توفير خط تلفون واحد على الأقل لكل ٢٠٠ زائر، قبل إسكان الحجاج، وفي زمان منح التصريح، لراحة الحجاج.

١٠ ـ يُطلب من مسؤولي «النقل الجماعي» زيادة خطوطها في مسير قوافل الحجاج الايرانيين، كي تتوفر للحجاج إمكانات التردد بين الحرم ومنازلهم البعيدة.

* * *

ج ـ النقل بين المدن

المشاكل المرتبطة بالنقل:

١ ـ التحسن النسبي في وضع شركات نقابة السيارات تبعث على السرور، لكن عدد الشركات الملتزمة بنقل الحجاج الايرانيين كثيرة (١٠ شركات)، ومن أجل ضبط السيطرة وتسهيل الارتباط بالشركات، نرجح حصر عدد الشركات في خمسة على أكثر تقدير.

٢ ـ في تقييمنا للحافلات تحوز شركة سابتكو على معدل ٩٨ بالمائة باعتبارها أفضل الشركات المتعاملة معنا، وشركات: المغربي، دلة، مكة، والسعودية على أقل معدّل يبلغ ٩٣/٤، ومن المناسب أن تحذف هذه الشركات من قائمة مجموعة شركات نقل الحجاج الإيرانيين.

٣ ـ رغم تحسن وضع الحافلات

كما ذكرنا، غير أن بعض مواد الاتفاق بيننا وبين النقابة لا يراعى في كثير من الأحيان مثل نظافة الحافلة، ومهارة السائق، ومعرفته للطرق، وتمكنه من اللغة العربية، وتوفر المياه الباردة وغيرها. وهذا يتطلب المزيد من الأوامر والتأكيدات.

٤ ـ يشاهد مع الأسف أحياناً تصرف سيء بعيد عن الخلق الإسلامي من قبل السواق ومسؤول النقل الجماعي، وكذلك عدم توفّر المكان المناسب لعفش الحجاج في المقاعد الخلفية خلافاً لصريح الاتفاق، مما يسبب مشاكل في سفر الحجاج.

٥ ـ مما يسبب في راحة الحجاج وسلامتهم لدى سفرهم زيادة عدد ورشات الصيانة الثابتة والسيارة بواسطة شركات النقل بين المدن، خاصة في مسير جدة ـ الجحفة ـ مكة، ومسير جدة ـ المدينة، والمدينة ـ مكة وبالعكس، وهكذا طباعة قائمة بعنوان هذه الورشات الثابتة وأرقام هواتفها، أو إعدادها بشكل ملصق يوضع في كل باص.

٦ ـ النقص في علامات المرور على مسير ميقات الجحفة لايزال من مشاكل الحجاج، وقد يؤدي أحياناً إلى تأخّر الحجاج عن موعد مناسك عمرة التمتع ووقوعهم في مشاكل شرعية. زيادة عدد العلامات يؤدي حتماً إلى تقليل هذه المشاكل.

٧ ـ إدارة شؤون النقل داخل المدن وبين المدن في الظروف العادية، لا يمكن أن تلبّي حاجة المسافرين في أيام الحج. من هنا فلابد من إدارة خاصة لأيام الموسم تتصرف وفق نظام جديد يتناسب مع الحالة الخاصة، التي تواجه النقل خلال ٢٠ ـ ٣٠ يوماً من أيام الموسم.

* * *

د ـ المشاعر المقدسة وأيام التشريق

١ ـ الخيام:

١/١ ـ حادث حريق منى من الحوادث الهامة في موسم الحج الماضي، وقد أدّى إلى وفاة كثيرين

وإصابة آخرين. وهذا الحريق لو قُدّر له أن ينشب في اليوم العاشر أو الحادي عشر لأدى إلى مأساة كبرى للعالم الإسلامي. وهذه الحادثة ليست الأولى من نوعها، ولو لم تتخذ الإجراءات الحاسمة للوقاية منها فسوف لا تكون الأخيرة من نوعها لا سمح الله. نحن نقترح عقد اجتماع من العلماء والمتخصصين من جميع أرجاء العالم الإسلامي لدراسة مسألة البناء في منى. وإذا لم تحسم هذه المسألة، فإن هذه المآسي ستتكرر ويذهب ضحيتها جموع من ضيوف الرحمن.

نشير هنا إلى أن هذه المسألة تحتاج إلى وقت لحسمها، وخلال هذا الوقت يمكن الاستفادة من التقنيات الحديثة للحدّ من وقوع هذه الكوارث. بعض المراكز الصناعية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية أعربت عن استعدادها لصنع خيام منى وعرفات من مواد مقاومة للاحتراق.

١/٢ ـ مؤسسة مطوفي الحجاج الإيرانيين تخصص كل عام القطع ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥ في أرض منى للحجاج الإيرانيين، وتوزعها على المكاتب التابعة (١١ مكتباً). وهذا التوزيع يتم بشكل غير منتظم على القطعات مما يؤدي إلى تشتت المكتب الواحد، وكان ذلك نصيب ٧ مكاتب في موسم الحج الماضي بين المكاتب الأحد عشر. كما أن شارعاً يمرّ بين القطعات الاصلية والقطعات المتممة مما يؤدي الى مشاكل في الإشراف وتنقل الحجاج. ومن الضروري التغلب على هذه الظواهر بدراستها على الواقع ووضع مخطط جديد لها. لذلك نقترح إعادة النظر في تفكيك القطع الثمان، وتوزيع خدمات المكاتب بشكل يتناسب مع سعة القطع.

١/٣ ـ نقترح الإيعاز إلى مسؤولي مؤسسة المطوفين رسمياً بتخصيص خيام في المشاعر المقدسة لأولئك الحجاج القادمين من ايران، خارج إطار مؤسسة الحج والزيارة، إيرانيين كانوا أم غير إيرانيين، وعدم

توزيع هؤلاء بين المكاتب المسؤولة عن الحجاج الإيرانيين دون استشارة مسؤولي الحج والزيارة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، تجنباً للاخلال والإزعاج في أعمال القوافل الإيرانية. ومن الأفضل تعيين سهم خاص لهؤلاء كي يُريحوا ويستريحوا.

١/٤ ـ مساحة الخيام في كثير من الحالات أقل من الحدّ المقرّر المتفق عليه. وقد يكون ارتفاع الخيمة قليلاً جداً بحيث يعيق تردد الحجاج، نأمل اتخاذ مايلزم لإزالة هذه النواقص.

٢ ـ النقل داخل المشاعر المقدسة

٢/١ ـ عدم الاهتمام الجاد من قبل النقابة لزيادة عدد مقاعد الحافلات.

٢/٢ ـ التأخير في إعطاء الاعتمادات وتذاكر الحافلات بحجة استلام مبلغ في المقدمة، رغم أن الاتفاق لا ينصّ على ذلك.

٢/٣ ـ عدم انطباق عدد الركاب المذكور في تذاكر الحافلات مع الحافلة المحوّلة من قبل شركات: أم القرى، والأندلس، ودلة. وعدم التزام النقابة والشركات بتعهداتهم.

٢/٤ ـ ضعف خدمات الصيانة خاصة على طول المسير.

٢/٥ ـ عدم كفاءة السائق في مهنته، بحيث أن أكثر حالات العطب ناشئة عن عدم وجود الكفاءة.

٢/٦ ـ عدم وجود تشابه بين حافلات الإسعاف والحافلات المستأجرة. بحيث أن هذه الحافلات (الإسعاف) ذات مستوى هابط في السعة والكيفية بالنسبة للحافلات المستأجرة.

٢/٧ ـ رغم أننا في نقل المشاعر نعتمد نظام الردّ الواحد، ندفع لذلك ضعف سائر البلدان، مع ذلك أغلب الحافلات المخصصة من موديل ٧٧إلى ٨٨ وذات حالة غير مرضية تماماً. المتوقع تخصيص حافلات لا تقل عن موديل ٨٦.

٢/٨ ـ استناداً الى تقارير مدراء القوافل، المبالغ المدفوعة بسبب الاختلاف بين عدد المقاعد المحوّلة

وعدد مقاعد الحوالة الصادرة ٣٣/٤٨٠ ريالاً سعودياً، وبسبب استيجار حافلات عن طريق مدراء القوافل في مسير المشاعر ٢٥/٠٠٠ ريال سعودي. ومثل هذه الخسائر نتحملها سنوياً بسبب عدم وجود مستندات يوافق عليها الجانب السعودي. ومشكلة هذه المستندات هي ضرورة أن تحمل توقيع السائق، وتأييد بقية المراجع القانونية مثل مؤسسة المطوفين والأدلاء، أو ممثلي الشركات.. وهذا متعذّر غالباً. من هنا نتوقع مساعدة معاليكم في تسوية الحسابات النهائية، كي نستطيع في المستقبل ـ إن شاء الله تعالى ـ أن نوجّه مدراء القوافل بهذا الشأن.

٢/٩ ـ في عرفات والمشعر ومنى في أيام التشريق، يلزم اتباع نظام في المرور يتحلّى بالسرعة والمرونة، كي يحول دون الازدحام، ويمنع حدوث احتكاك بين مسؤولي المرور والحجاج.

٢/١٠ ـ عدم تخصيص تصاريح لسيارات بعثة حج الجمهورية الإسلامية الإيرانية أدى إلى صعوبات وتعويقات في الأعمال؛ لذا يقتضي ما يلزم لصدور تصاريح لخمس سيارات يستطيع أن يتردد بها مسؤولو بعثتنا بين المشاعر أسوة ببقية البعثات.

٣ ـ سائر مسائل المشاعر المقدسة:

٣/١ ـ تعلمون معاليكم أننا استعنا منذ سنوات بالبالون في منى من أجل توجيه الحجاج إلى محلّ خيامهم، خاصة وأن المسافة بين خيام حجاجنا والجمرات طويلة، وكثير منهم طاعنون في السن، وبعضهم أميون، واستطعنا بذلك أن نتغلب إلى حدّ كبير على ضياعهم. ولكن مُنع تصعيد البالون في موسم الحج الماضي، ولم تثمر جهودكم في توضيح الأمر لمسؤولي إطفاء الحريق. مشكلة ضياع الأفراد لو اقتصرت على حدود خيام الإيرانيين؛ لأمكن التغلب عليها عن طريق توظيف أفراد لهذا الأمر، ولكن المشكلة تتسع لتشمل المسافات

البعيدة عن الخيام أيضاً، عندئذ يكون استخدام الأفراد لهذا الغرض غير مفيد. لذلك نطلب إعادة النظر في رفع البالون ولو بالون مركزي واحد. ولإكمال هذه المهمّة نطلب السماح لاستعمال الإضاءة الليزرية في الليل، وهي إضاءة غير مضرّة، وقابلة للرؤية من مسافات بعيدة.

٣/٢ ـ بسبب قلة مساحة أرض منى، وزيادة عدد الحجاج كل عام، نقترح إنشاء مرافق صحية ذات طوابق عديدة تخصص السفلية منها للمراحيض والعليا للاستحمام.

٣/٣ ـ بسبب زحمة الحجاج في المشاعر المقدسة، وبطء السير في الطرق بين منى والمشعر وعرفات وبالعكس، من المناسب استخدام الأساليب الحديثة في النقل. ونقترح في هذا المجال أربعة خطوط للقطارات الكهربائية (ترامواى): اثنان منها في الأنفاق الأرضية، واثنان فوق الارض؛ لنقل الحجاج بين المشاعر، مما سيكون له أكبر الأثر في إزالة تلوث الجو، وتقليل تعب الحجاج الراكبين والراجلين.

٣/٤ ـ لتلطيف الجوّ في المشاعر وتنظيفه، نقترح شتل أشجار مقاومة للحرارة والجفاف مثل الكاليبتوس، وستعمل هذه الأشجار على تطهير الجوّ أيضا لما تفرزه من غازات مطهّرة.

٣/٥ ـ قدمنا من قبل اقتراحاً لمسألة الحلق، وما يجرّه من وضع مزر يهدد سلامة الحجاج في منى. وذكرنا ضرورة تخصيص محل خاص بالحلق، ووضع أكياس نايلون تحت تصرّف القوافل لجمع الشعر فيها. ونحن نؤكد هنا هذا الاقتراح.

٣/٦ ـ توقف الحافلات إلى جانب مكاتب منى يحول دون قراءة لافتات الحملات. نرجو الإيعاز إلى الجهات المختصة بمنع وقوف وسائط النقل جوار الخيام.

٣/٧ ـ الجسور المؤدية إلى رمي الجمرات من الطابق الأعلى كانت في اليومين ١١ و ١٢ ذي الحجة مسدودة حتى الظهر، مما أدى إلى ازدحام شديد

حول الجسور. ومثل هذا العمل قد يؤدي إلى بروز حوادث سيئة بسبب شدة الحرارة وحيرة الحجاج، ويؤدي إلى هجوم مباغت من قبل المتجمعين بعد فتحه مما قد يعرّض الحجاج إلى الخطر. نأمل اتخاذ أسلوب أفضل للسنة القادمة.

* * *

هـ ـ المسائل العامة

١ ـ مشكلة السرقات في الأماكن المزدحمة وخاصة في الحرمين الشريفين، واختطاف الأفراد وضربهم من أجل سلب أموالهم ظاهرة مشهودة في الموسم الماضي، ويمكننا أن نضعكم في صورة تفاصيل تلك الحوادث. لذلك نرى من الضروري استخدام عدد أكبر من البوليس السرّي لصيانة أمن الزائرين بشكل أدق وأكمل.

٢ ـ عدم وجود نظام ودائع صحيح لأموال الحجاج من المشاكل الموجودة في موسم الحج، ولابدّ من التفكير في حلّ لها.

٣ ـ انتشار الأمراض المسرية من المشاكل التي تؤذي الحجاج كل عام، وقد يعود الحاج وهو مبتلى لأشهر بهذه الأمراض، من هنا لابد ـ كما ذكرنا سابقاً ـ من إجراء دراسات تخصصية موسعة في هذا المجال. وأعرب مرة أخرى عن استعداد اللجنة الطبية لحج الجمهورية الإسلامية الإيرانية للتعاون في هذا المجال.

جدير بالذكر أن عدم الاهتمام اللازم بالنظافة في المشاعر والمسجد الحرام، وخاصة في قسم مياه زمزم ومحلات الوضوء والمرافق يوفّر الأرضية المساعدة لانتشار هذه الأمراض، وهذا يستلزم مزيداً من الاهتمام بالتوجيه الصحي للحجاج.

٤ ـ المسائل المرتبطة بوراثة الحجاج المتوفين في المملكة سواء من نقل منهم إلى إيران أو دفن هناك تتطلب في الأجهزة القضائية الإيرانية شهادة وفاة من الشرطة السعودية. لكن الحصول على هذه الشهادة من

الشرطة فيه صعوبات جمّة. نرجو الإيعاز بتقديم التسهيلات اللازمة.

٥ ـ من الضروري تنظيم توزّع الناس في المسجد الحرام بحيث لا يزاحم المصلي الطائف، ولا الماشي المصليَ، ولا مستلم الحجر حركةَ الطواف، ولا المارةُ الساعينَ بين الصفا والمروة. وهذا يحتاج الى خطة تحول دون التداخل الحالي.

٦ ـ لعل جميع الحجاج القادمين إلى الحرمين الشريفين يودّون أن يقضوا أكثر أوقاتهم في العبادة بالحرمين الشريفين. وهذا الهدف يتحقق في مكة المكرمة حيث المسجد الحرام يستقبل الناس ليل نهار. لكن ذلك متعذر في المدينة المنورة، بسبب الإسراع في غلق المسجد النبوي الشريف بعد صلاة العشاء. ثمة مطالب كثيرة أحملها من الايرانيين تدعو حكومة المملكة العربية السعودية إلى فتح أبواب المسجد النبوي خلال موسم الحج على الأقل في الليل أيضاً.

٧ ـ في المدينة المنورة وخاصة في البقيع يواجه الحجاج موانع ومشاكل، من ذلك على سبيل المثال منعهم من الذهاب تحت مظلة البقيع، وكون الطرق المؤدية إلى المسجد النبوي ترابية. من المناسب اتخاذ مايلزم لإزالة هذه الظواهر. ومن الطبيعي أن حجاجنا سوف يتعاونون على حفظ الانضباط والنظام في هذه الأماكن الشريفة.

٨ ـ الارتباط عن طريق الهاتف العمومي بإيران من المملكة، وخاصة من المدينة ماكان متيسراً خلال الموسم الماضي. وكان اسم إيران محذوفاً من قائمة «الكود» في الهواتف العمومية. وهذا يترك انطباعاً سيئاً لدى الحجاج لايتناسب مع العلاقات الودية بين بلدينا؛ لأنهم يشعرون بنوع من التميز بينهم وبين سائر حجاج البلدان الإسلامية. من المؤمل أن لا يتكرر مثل ذلك في السنوات القادمة.

٩ ـ بعد طلبنا إقامة عدد من الخطوط الدولية والداخلية، فقد تمّ

نصب بعض التلفونات المطلوبة، لكن الهواتف الدولية كانت بين الفينة والأخرى تتوقف عن العمل بحيث أدى إلى ارتباك الأمور في البعثة، وما عاد إرسال الفكس إلى إيران مقدوراً. وأحياناً كان الارتباط الدولي ينقطع تماماً، ويتحول الهاتف إلى داخلي فقط. وكانت هذه المشكلة تواجهنا حتى في مكاتب الهاتف، فيقولون: إن خط إيران «خربان». بينما كانت مدارات الارتباط بإيران سالمة، وكان من الممكن الارتباط بايران في المنازل والفنادق. وهذه المشاكل أثارت اعتراض حجاجنا خاصة أولئك الذين اشتروا كارت الاتصال من فئة ١٠٠ ريال أو ٥٠ ريالاً. وهكذا كان من المقرر حسب الاتفاق منحنا تلفونات جوّالة، وكتبنا إلى دائرة الهاتف في المدينة المنورة ومكة المكرمة طالبناهما بخمسة تلفونات جوّالة. ولكن طلبنا بقي دون جواب. نقترح ايصال نسخة من اتفاقنا إلى الجهات المختصة بسرعة، وأن يتعين ممثل عن دائرة الهاتف في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدّة للاتصال به عند اللزوم.

١٠ ـ واجه الحجاج هذا العام في المسجد النبوي الشريف مزيداً من العنت والتضييق. فقد كان مأمورو الأمر بالمعروف في الحرم يقتحمون صفوف الحجاج الجالسين بانتظام وهدوء لتلاوة الدعاء، فينتزعون كتاب الدعاء من يد الحاج، مما يؤدي إلى استياء شديد بينهم. نطالب بإصدار التعليمات اللازمة لمنع هذه التصرفات المشينة التي تترك أسوأ الآثار في نفوس الحجاج. طبعاً، نحن نؤيد تمام التأييد أي عمل إرشادي للحجاج خاصة في موسم الحج بمعزل عن الإهانات والإثارات الطائفية.

معالي الأخ الوزير

نحن نؤمن بأن السبيل الوحيد للتغلب على المشاكل والنقائص هو تظافر جهود كل البلدان الإسلامية استجابة لقوله سبحانه: ﴿**وتعاونوا على البرّ والتقوى**﴾ دون أن يكون

للاختلافات السياسية والجغرافية واللغوية والمذهبية دور في عملية بذل الجهود.

من هنا فإننا نكرر اقتراحنا بضرورة اشتراك متخصصين من كل البلدان الإسلامية بإشراف المملكة العربية السعودية من أجل إجراء دراسات معمقة لكل المسائل التنفيذية للحج والتوصل إلى أنجع الحلول.

إنكم قادرون على بثّ روح «الاستباق للخيرات» بين المسلمين في هذا المجال، وسيكون لهذا الأمر نتائج ملموسة تعود بالخير والبركة على حجاج بيت الله الحرام، وعلى الجوّ الإسلامي المعنوي للحج.

أغتنم الفرصة لأرفع إليكم تحيات أخوية عطرة أحملها من معالي وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية إلى معاليكم، كما أحمل إعلان استعداد الوزارة كاملة للتعاون الأخوي مع حكومة المملكة العربية السعودية وشخصكم الكريم، وكل العاملين في حقل الحج.

في الخاتمة أسأل الله سبحانه أن يمنّ علينابفضله وكرمه لأن نصل إلى ما نصبو اليه جميعاً عن طريق تعاون جادّ مخلص بين الحكومتين الإيرانية والسعودية.

إن ما تلمسناه فيكم من روح تطوير للحج وتقبل للاقتراحات، وتفهّم للمشاكل، وتحرٍّ للنقائص هو الذي شجعنا على الكتابة إليكم، وإننا إذ نطرح هذه المشاكل نعلن ثانية عن استعدادنا للتعاون معكم في التوصل إلى حلول بشأنها، وأملنا أن نكون قد قطعنا بهذا الكتاب خطوة أخرى على طريق التعاون مثلما تلمسنا أثر مثل هذه الكتابة من قبل. وما توفيقي، إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم محمد حسين رضائي

رئيس منظمة الحج والزيارة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية